مداد
Medad

أمير تاج السر

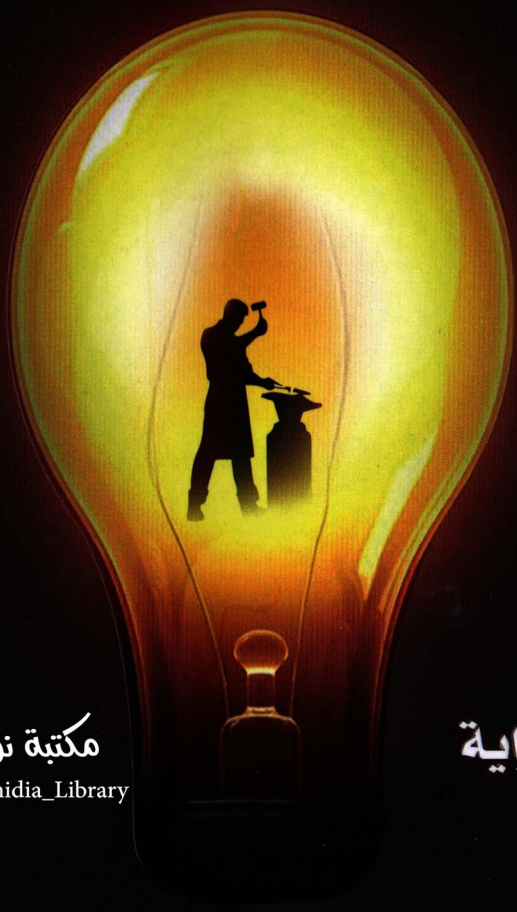

مكتبة نوميديا 66
Telegram@ Numidia_Library

رواية

سيرة مختصرة للظلام

سيرة مختصرة للظلام

الكتاب: سيرة مختصرة للظلام
المؤلف: أمير تاج السر
تصميم الغلاف وإخراج الكتاب: مداد للنشر والتوزيع -دبي
الرقم الدولي للكتاب: ISBN:978-9948-02-436-1
الطبعة الأولى: 2017

جميع الحقوق محفوظة

"يمنع نشر أو نقل هذا الكتاب أو أي جزء منه، بأي وسيلة من الوسائل الورقية أو الإلكترونية إلّا بإذن خطي من الناشر."

مداد للنشر والتوزيع
Medad Publishing & Distribution
دولة الإمارات العربية المتحدة - دبي

@medadpublishing
@medadpublishing
medadpublishing1

www.medadpublishing.com
e-mail: info@medadpublishing.com

جميع ما ورد في محتوى الكتاب يعبّر عن آراء الكاتب، ولا يعبّر عن رأي مداد للنشر والتوزيع

أمير تاج السر

سيرة مختصرة للظلام

رواية

-١-

قالت الفتاة العشرينية، بجرأة وتلقائية، ووقاحة أيضاً، وهي تحشر نظراتها عميقاً في عيني، وتمد يداً ليّنة لمصافحتي، ولا تعبأ بعمري ومنصبي، وأيضاً بمدير مكتبي، وحارسي الشخصي، اللذين يقفان متصلدين بقربي:

- معالي الوزير، اسمحْ لي أن أقول لك بكل صراحة إنني أحبك بجنون. أنت فتى أحلامي الأول، معالي الوزير.

أحسستُ بابتسامة مرتعبة، تزحف إلى شفتي، لكني خنقتها بسرعة، أحسست بتفاصيل الاستغراب كلها، تتملكني، واستخدمتها بلا تردد.. مددت يدي إلى جيبي، أخرجت منديلاً أبيض مطرزاً بخيوط ذهبية لماعة، مسحت به وجهي، وما علق فيه من دهشة، تلفتُّ حولي، في الاتجاهات كلها واعتدلت أواجه الفتاة مرة أخرى، تحسست نظارتي الطبية، التي أستخدمها أحياناً، ولم تكن على وجهي في تلك اللحظة، ونظرت إلى ساعتي السوداء ماركة أوميجا مرات من دون أن أقرأ الوقت، ورددت: ط.. ولم أكمل، ذلك ببساطة أنني لم أعرف ماذا ستكون بقية الكلمة: طيب.. طوبى، طرب، طبطبة.. طهارة.. لا أدري حقيقة.

قلت أم، وأيضاً لا أعرف إن كانت: أمي، أم الفتاة، أم ساق.. أم سراويل ممزقة.. أمريكا... لكني استطعت أن أقول: شكراً، كاملة، أو هكذا اعتقدت. يطرحون في هذه العجالات،

ولحظة أن يصطادوا مسؤولاً، شبحاً، غير متاح إلا نادراً، مواضيع وأسئلة مثل: ما رأيك؟ نحتاج ل..، تنقصنا.. أنتم فعلتم..هكذا، لكن مسألة الحب، لا أعتقد بأنها طرحت، وبهذه الصيغة الغريبة، الفاضحة من قبل قط.

كان سائقي بكار بابو آدم، وهو حارسي الشخصي، في الوقت نفسه، الذي ينحدر من إحدى قبائل الغرب الكبرى، وتربى في العاصمة، حين جاءها صغيراً، متيبساً، بنفس وقفته التي عين بها حارساً لي، منذ حوالي الستة أعوام، لا نظرات محددة، ولا إشارات من يدين، ولا رمشات من عينين، ولدرجة فكرت كثيراً أنه لا يملك أي حاسة من الحواس البشرية المعروفة، وأن حراسته لي تلك، مجرد وقفة رمزية بلا مزايا، وربما أموت بأي اعتداء، ولا يزال في تلك الوقفة، والسلاح الناري نائم في جراب على خصره، وبدافع التأكد فقط، جربته مرة حين أمرت خادمة في البيت، أن تتخفى خلف الأشجار، وتلقي بعدد من الأحجار الصغيرة، في اتجاهي، وأنا أجلس في الحديقة، أحتسي قهوتي، وأدخن سيجاراً كوبياً جيداً، تحت حراسة ذلك الرمزي.

الخادمة، وكان اسمها: بعيدة، وفي ثلاثينيات العمر، وتدعي بأنها أجمل خادمة في الحي، وربما تكون كذلك بالفعل، ترددتُ كثيراً، وارتبكتُ من الطلب غير المعتاد، لكنها نفذت الأوامر في النهاية، وكانت النتيجة أن إحدى ركبتيها تحطمت على الفور، حوضها المخدش، كما جاء في التقرير الطبي للأشعة، وطار سنان

رئيسان، من فكها الأسفل، واضطررنا لعلاجها زمناً طويلاً، في مصحة خاصة، وتعويضها ببعض المال، قبل أن تعود إلى الخدمة دميمة، ومنهكة، ومذعورة، وترتعد بشدة، إن شمّت رائحة عرق رجالي، حتى لو لم يكن عرق بكَّار، ثم لتترك الخدمة نهائياً بعد ذلك..

كان الحارس الرمزي، كما تأكد لي بعد تلك الواقعة العنيفة، التي أسفت عليها، ثم نسيتها ونسيت أسفي، أكثر ضرراً لأعدائي وربما لأصدقائي أيضاً مما ظننت. اكتشفت أن عينيه تقرآن الأماكن، تقيسان مساحاتها، وتقترحان بؤر الشر فيها، وتسجلانها، وله حواس شم مذهلة، ومتعددة الطبقات، كان يشم الخيانات، والأذى، ويتحرك بحاسة الشم تلك، والآن لم يتحرك والفتاة العشرينية، ذات الصوت البديع، والجسد الصبي المنسق، قد اقتربت، ورمت بالطعم اللذيذ، فلا بد أنه لم يشم هواءً مميتاً، ولم يرَ أذى، في طلة كائن جميل مثلها.

كان مدير مكتبي: سليمان صافي، أو سليمان اللملام، بحسب لقب عائلته، أكثر تفاعلاً من بكَّار، ليس لأنه اندهش، أو تحدث سلباً أو إيجاباً، ولكن لأنه تحرك بخفة النادل الذي كان يشغله في مطعم تانجو المرتب، في ساحة رابابليكا، بمدينة لوقانو السويسرية، حين التقيته أول مرة، منذ خمسة أعوام، أعجبتني خفته كثيراً، وأنه يجيد الحيل، ولغتين أوروبيتين: الفرنسية والألمانية، أعدته في هجرة عكسية للوطن، وعينته مديراً لمكتبي برغم استغراب كل موظفي الوزارة، الذين رأوا أحقية أن يكون

مدير مكتبي واحداً منهم. وشغل منصبه بجدارة ربما لا يعرفها غيري وغيره، ولا أعني الجدارة التي تضع كل ورقة في مكانها الصحيح، وكل نقطة حبر في موضع نقاط الحبر، وكل شكوى أو استفسار غير لائق، في سلة المهملات، وإنما جدارة حفظ السر، حيث كل ما يحدث معي في وجوده، أو معه في وجودي، أو مع أغراب في وجودي ووجوده، كما حدث اليوم مع تلك الفتاة، كأنه لم يحدث قط. ما لم تتبعه مضاعفات أخرى، وفي كثير من الأحيان، كان النادل القديم، يوسع خطى كتم السر، ويقضي على المضاعفات قبل حدوثها.

كان قد أخرج قلماً أسود من ماركة باركر المجيدة، ودفتراً صغيراً وردي الحواف من جيبه، سأل الفتاة عن اسمها وهويتها، وطريقة إيجادها، إن أراد السيد الوزير أن يتحدث إليها فيما بعد، ودوَّن إجاباتها بابتسامة مرحة، ثم أمسكها من يدها، أبعدها عن طريقي، وركبتُ عربتي بأمان.

كان سليمان بعكس ما يوحي به اسمه الذي كان أقدم كثيراً من أسماء جيله، وتوحي سلطته كمدير مكتب مرموق في إحدى الوزارات، قصيراً إلى حد ما، كانت عيناه ضيقتين، أنفه متوسط الحجم، وجسده متناسقاً بشكل يلفت النظر، كأنه كان لاعبَ كرة قديماً، كأنه كان عدّاءً بارزاً واعتزل لسبب أو لآخر. شاهدته يخبُّ سريعاً إلى عربته الصغيرة من ماركة "بيتلز"، المركونة في موقف قريب، ولم يلتفت حتى ليرى إن كانت الفتاة ذات العاطفة

المغامرة، والجرأة والوقاحة، قد ابتعدت بالفعل، أم عادت لتبحث عن درب جديد، تلج به عالم الوزير.

حدث ذلك عصر الأربعاء، الحادي عشر، من شهر يناير عام ١٩٧٨، حين افتتحتُ بصفتي وزير الثقافة، معرضاً للفن التشكيلي، لمجموعة من رسامي البلاد المغمورين، من الشباب وغير الشباب، في قاعة تابعة لوزارتي، اسمها: قاعة الراحل أحمد. وبالرغم من أنني أتولى ذلك المنصب منذ ستة أعوام تقريباً، تغيرت فيها الوزارة مرتين، خرج زملاء، ودخل زملاء جدد، ولم أترك منصبي، بسبب علاقتي القديمة برئيس البلاد كما أعتقد، وحضرتُ نشاطات شتى في هذه القاعة بالذات، مثل: معارض الكتب الموسمية، ومعارض الخزف ومنحوتات الحديد، والأمسيات الشعرية، وحفلات تكريم الأدباء، والمغنين، والصعاليك والرجرجة، إلا أنني لا أعرف من هو الراحل أحمد، ذلك الذي سميت القاعة باسمه، ولا أتذكر إن كانت سُمِّيت في عهدي أم عهد وزير آخر..

لقد فكرتُ كثيراً أن أسأل، واستحيت بشدة، فلن يتوقع أحد أن لا يعرف الوزير، قاعة مجهزة، في مباني وزارته، أو حتى مجرد ذبابة طنانة، تطن فيها. وجلست في أحد الأيام بعد ذهاب الموظفين كلهم، بمن فيهم سليمان صافي، داخل أرشيف قديم، مغبر، قريب من مكتبي، أنقِّبُ في سير الراحلين من أهل الفن والثقافة، باحثاً عن أحمد اللغز، صاحب القاعة، وعثرتُ على أكثر من ستين أحمد، رحلوا في أزمان مختلفة، وبأسباب مختلفة

للغاية، كالغرق والحريق، وتعذيب أجهزة الأمن، ورصاص الشرطة الحي في مظاهرات الشوارع، ومضاعفات المرض وشرب الكحول، وتدخين البانجو، والثرثرة لساعات طويلة في منتديات النقاش، أو حتى بلا أي سبب على الإطلاق. وكان فيهم مغنون، وشعراء، ورسامون، وعازفو طبل وكمنجة، وأكورديون، ومصممو ديكور، وامرأة كانت تطرز القماش الأبيض، بخيوط ملونة، وتبيعه للسياح تذكارات، اسمها أحمدة، ويختصر اسمها إلى أحمد، وأحسست بتوهان حقيقي..

فقد أخفقتُ في العثور على الراحل صاحب القاعة، وتملكني الغضب فعلاً، أن تسمى قاعة للفن، باسم شخص لا ينسب لأب يميزه عن الآخرين، وقلت لسليمان صافي، الذي لم أفاتحه في موضوع جهلي بصاحب القاعة، قط:

قلت له: لماذا لا نغير اسم قاعة الراحل أحمد، ونطلق عليها اسم راحل آخر من أولئك الذين ملؤوا الحياة الوطنية ضجيجاً وصخباً، وشكلوا وجدان الشعب؟

فارتعد سليمان، وبدا لي مذعوراً وخائفاً من شيء ما: ردَّد بصوت عالٍ نسبياً، أسمعه لأول مرة يصدر منه أمامي، وكان أميل لخفض الصوت، لدرجة الهمس أحياناً: وجدان الشعب؟ ومن شكل وجدان الشعب أكثر من الراحل أحمد؟ مستحيل معاليك، هذا شيء سيعرضنا للانتقاد العنيف من جميع أجهزة الدولة، ولا تؤاخذني إن قلت لمعاليك، إنه قد يؤدي إلى إعفائك من الوزارة فوراً.

إعفائي؟

لا.. كان هذا آخر ما قد أفكر فيه، والكرسي برغم أشواكه، وتضاريسه الصعبة، مُغْوٍ بحيث لا يمكن المغامرة به من أجل راحل ممل.

كان الأمر كما يبدو سيادياً بحتاً، ولا مجال لأي فكرة مغايرة في شأنه.. وربما يكون الراحل هذا، ابن عم لرئيس الجمهورية، أو عماً أو خالاً، أو ربما اسماً مستعاراً لرئيس الجمهورية، نفسه.

إذن لن نغير الاسم، لن نغيره، قلتُ لسليمان.. إنها مجرد فكرة خطرت ببالي، لكني راجعتها، وثبت لي خطَؤُها.

ابتسم مدير مكتبي، عادت صبغة الحياة إلى وجهه مرة أخرى، أخرج من درج في خزانة خلفي، قرصاً من حبوب أتينولول، علاج ضغط الدم الذي أستخدمه منذ دخلت الوزارة، قدمه إليَّ ومعه كوب من الماء، وهو يقول:

موعد الدواء معاليك.. هذا أهم من القاعات وأسمائها.

على أن تفكيري في صاحب القاعة المزعج ذلك، لم ينهزم قط، وظللت متوتراً، ويزداد توتري كلما جاءت سيرته حين نفتتح معرضاً، أو نشارك في إحياء فقرات تراثية في القاعة، أو لمجرد العبور بجوارها ومشاهدة تلك اللافتة السوداء التي تحمل اسمها، وكلما فكرت في الحديث إلى سليمان وسؤاله مباشرة، أحس بالحرج، وأبتعد قليلاً عن التفكير، لكني أعود إليه، وكانت النتيجة، أن

الراحل أحمد، بقي راحلاً غامضاً إلى الآن، على أمل أن تزيل الأيام غموضه، أو تنهدَّ تلك القاعة وتنطوي سيرتها..

قلتُ إننا افتتحنا المعرض التشكيلي، وكان كل رسام من أولئك المغمورين، يقف متأنقاً أمام لوحاته المشاركة، يشرحها بعمق، أو سطحية لا أدري، فلم أكن ذا دراية بالفن التشكيلي، ولطالما اعتبرتُ التلوين بلا هدف محدد، ورسم الحشرات والزواحف، بادعاء أنها بشر، والشوك بأنه زهور نضرة، والقطط والكلاب الضالة، بأنها قطرات مطر تهبط من السماء، في موسم الخريف، إساءة بالغة لرموز الحياة كلها بلا استثناء، وأذكر في صباي المبكر، حين كنتُ أعمل حداداً في ورشة سليم جاد الرب، قبل أن أعود لمقاعد التعليم، وأكمل المرحلة الثانوية، أن جاء أحدهم يحمل لوحة كبيرة، فيها كل هذه الإساءات وأكثر من ذلك: الوجوه الحشرات، الشوك الزهور، القطط والكلاب التي تمطرها السماء، وثمة بعور سوداء متناثرة هنا وهناك، قال إنها أرواح هائمة، إضافة إلى كأس أزرق كبير في منتصف اللوحة، ذكر بأنه مملوء بإكسير اسمه: إكسير الحب، وطلب أن نصنع لها إطاراً خاصاً من الحديد الرقيق، المطلي بلون ذهبي، لأنه سيهديها لصديق عزيز، يقدره كثيراً.

تلك اللحظة، اغتظتُ، صرختُ في وجهه، قلتُ له: أهدِ لصديقك العزيز هذا، عطراً جيداً مثل "الفلور"، و"الريفدور"، و"أحلام سعيدة"، ينعشه وينعش المكان الذي يمر فيه، أهدِ له

ثوباً جديداً، يرتديه في المناسبات السعيدة أو الحزينة، لا فرق، أهدِ له عمامة جميلة من قماش التوتل، أو الكرب، يزدان بها رأسه، أهدِ له أي سخافة أخرى معقولة، يتساخف بها. فلم يتقبل الرجل انتقادي، وشكاني لصاحب الورشة الذي وبخني بشدة، وقال لي بالحرف الواحد:

نحن حرفيون يا جمعة، ولو جاء أحدهم يسأل عن لبن الطير، وأمكننا إعداده، سنعده.. لا تشتبك مع الزبائن رجاءً.

وصرتُ منذ التوبيخ ذلك، أقوم بنحت الإطارات لأي مدع، حتى لو جاء بفردة حذاء، أراد تأطيرها وتعليقها في صالة بيته، ولو جاء بامرأته، وطلب أن نحشوها بالحديد.. أو القصدير.

شخصياً لم ألحظ أن ثمة فتاة جميلة، عشرينية، ترتدي ثوباً أبيضَ، مطرزاً بالأحمر، والأزرق معاً، وتحمل حقيبة صغيرة بنية اللون، على كتفها الأيمن، موجودة في ربكة الافتتاح التي ضمت موظفين كباراً في الوزارة، وفنانين معروفين، وأدباءَ أيضاً، وغوغاءَ بلا هوية.. وأظن أن سليمان لا بد انتبه إليها، ومؤكد أن بكَّار بابو آدم، شمها، وشم الموجودين كلهم، وربما فتش جيوبهم بعينين قاسيتين، تجيدان تخمين مكامن الأذى، وسمح للكرنفال أن يمضي براحته.

أنا لم أنتبه، ولا حتى شممت عطر الياسمين القوي، النظيف، الذي كان ينبعث من الفتاة، وهي تقترب وتبتعد، تبحث عن فرصة لتصافحني، كما أخبرني بكَّار بعد ذلك. مؤكد أنني لم ألحظ

عينيها الواسعتين جداً، وأنفها البديع، وسعالها الخافت، الذي ينبئ برقة طافحة لا مرض صدري، ومؤكد، لم أنتبه إلى تفاصيل كثيرة، حدثت في موكبي وأنا أتجول بين خربشات المغمورين، المساكين، أتأمل ابتساماتهم المحبوكة إلى حد ما، وأربطة العنق التي علقوها في فوضى، أو عدم دراية، وتبدو بعيدة عن الأناقة، وأستمع لشرحهم الكذاب عن وهم اسمه لوحات فنية. لا أعرف إن كانت الفتاة تعثرت وكادت تسقط وهي تلبس كعبها العالي الأخضر، أم لا؟ إن سندها أحد، أو استندت إلى أحد، أو إلى أقرب حائط؟ إن كانت أحست باختناق ما، والفتيات الرقيقات دائماً يختنقن بأنفاس الرجال البشعين، السخيفين، في القاعات الضيقة، ويوددن لو خرجن إلى الهواء الطلق، وتنفسن دقائق بارتياح. هذه تفاصيل لم أنتبه إليها، وأيضاً مسألة عشق الجمال وملاحقته، تلك المعتادة في هذه الاحتفالات، عند بعض الذين لم يأتوا لتذوق فن أو معانقة ثقافة، وإنما بهوس الافتتان بالنساء، أكاد أجزم أن أكثر من عشر مهووسين في موكبي، منهم وكيل الوزارة شخصياً، واثنان من مساعديه، أعرف توجهاتهما جيداً، لاحقوا تلك الفتاة، وهي تلاحقني، ربما عرفوا أنها غير قابلة لرد الافتتان افتتانين، والهوس هوسين، وتركوها، أو ظلوا مقتنعين بسهولة صيدها، فتركوا فخاخ الصيد، مشرعة حتى انتهى الافتتاح.

داخل العربة التي يقودها بكّار بابو، وأخاله واقفاً متيبساً وهو يقود، وأقرأ تقلصات عنقه الضخم المجعد، أمامي، حاولت أن لا

أفكر في الفتاة كثيراً، كان اسمها: ميمونة، كما سمعتها توضحه لسليمان صافي، حين سألها، اسم جيد ومن الأسماء المتداولة كثيراً في هذه الفترة، ربما تفاؤلاً باحتمال يُمْن قادم في زمن كله قحط، أو مجرد اسم متداول بين الناس، لا أقل ولا أكثر. هويتها وطريقة العثور عليها مستقبلاً، مدونتان في الدفتر الصغير عند سليمان، واحد من المشاريع المؤجلة لديه، وأجزم أنه لن يسلمني إياه بسهولة، فقد اعتاد على تخزين كثير من المشاريع التي يحس بأنها خاسرة، ولا يعرضها علي، والمشاريع العاطفية لرجل متزوج في الثانية والستين، ويشغل منصباً رفيعاً في السلطة، وغير معروف إن كان دمه جيداً أو معكراً بسبب نقص ما أو زيادة ما لمكوناته، لا بد في نظر سليمان، خاسرة جداً. سيقول في نفسه: هذه فتاة مجرمة، من الجائز أنها قرأت كثيراً في علم النفس، وعرفت توافه الرجال حين يشيخون، وربما قرأت كتباً لفرويد، وديكارت، أو روايات مشحونة بمواقف لشيوخ وطأهم جمر الإغواء، وأحرقهم، ربما شاهدت الفيلم الياباني: العجوز حبيبي، الذي كان معروضاً في سينما جلاكسي، حتى عهدط قريب، وفيه فتاة يانعة تتسلى. وسط كم من العجائز وتصرفاتهم المسنة، هي تدعي الآن حب الرجل العجوز لتبتزّه، وتوجد كثير من المنح الجيدة، التي يمكن الحصول عليها من وزير شيخ، قالت له فتاة إنه فتى أحلامها الأول.

أعرف أن سليمان سيبتسم، وفي عزلته حين تنتهي مصاحبته لي، أعرف أنه يملك مخزوناً من مختلف أنواع الابتسامات، والضحكات، ابتسامات عابسة، ابتسامات متهكمة، ابتسامات شقية تطلقها شفتاه حين يكون الموقف أكبر من التهكم والاستهزاء، وضحكات شرهة، وشرسة، وضحكات خافتة سخيفة المعنى.

خمس سنوات وأنا معه، أو هو معي، ولا بد أن يعرف مع مَنْ هو، وأعرف مع مَنْ أنا.

فجأة ارتعبتُ بشدة، خفتُ أن يتجه مدير مكتبي الخفيف، بلا مشورة مني لما نسميه بيننا: نشر العقدة، وهي أن ينهي بما يملكه من صلاحيات، أو حتى لا يملكه، ويطوعه قسراً، أي موضوع يحسه فاضحاً، أو سيؤدي إلى مشكلة في المستقبل، بمعنى أن يسعى لإلغاء الفتاة العشرينية من حياتي، قبل أن تدخل تلك الحياة، وتوجد عندنا طرق عدة نسلكها من أجل ذلك الإلغاء، طرق عادية جداً، يمكن أن يسلكها أشد الناس رأفة، الأمهات مثلاً، مثل قرص الخد، الضرب الخفيف على الرقبة، وطرق عنيفة، أخاف أن أذكرها حتى.

كان لا بد أن أنبه سليمان، وسيضحك الشقي حين ينفرد بنفسه. سيردد: منذ متى كان العجوز، معالي الوزير، ينبهني؟ وقد نشرت عشرات العقد من قبل، ولم يقل شيئاً؟ كان سيكون محقاً في ذلك، لكن لن أتركه يلغي العشرينية، ليس لأنها أغوتني،

في تلك الدقيقة التي صافحتني فيها بيد لينة وعينين جريئتين، ورمت لي بشرك مدهش وتم إبعادها، وهذا حقيقي، ولكن لأنني قد أحتاج لشيء من استعادة الثقة القديمة بنفسي، حين أتذكر كلماتها الرائعة، ولا أحب أن أتذكر كلمات فتاة قد تكون منفية أو معاقة، أو في مصح للأمراض العقلية، على أقل تقدير.

أنت فتى أحلامي الأول، معالي الوزير.

ابتسمت، برغم توتري، وأنا ألوك الجملة الضخمة الفخمة، بأسنان خيالي، ولا أود ابتلاعها، كان طعمُها حلواً بالفعل، ولم تبدُ لي ساخرة، وأنا أتمرغ في ذكرى صوت الفتاة الناعم، الطري، وانتبهت إلى أنها المرة الأولى التي توظف فيها تلك الجملة، من أجلي، فلم يحدث أن نطقتها فتاة أمامي، قط. حتى حين كنتُ في سن تسمح بضخ العواطف، نارية وحارقة، واستقبال العواطف نارية وحارقة أيضاً، وقد تمنيتُ وأنا في السادسة عشرة، وأعمل حداداً عند جاد الرب، وأذهب إلى بيته، أحياناً، بهدف وبغير هدف، أن أسمع تلك الجملة، من تهاني ابنته الجميلة، التي تملك شفتين مؤهلتين لنطق الجمر كله، ولم يحدث ذلك، أن أسمعها من بائعة الخضراوات الصغيرة هلالة، التي كانت تتجول في حيِّنا، في الصباح الباكر، وعشقتُ صوتها أولاً، ثم عينيها ثانياً، ولم يحدث أيضاً، وكان أن اقتنعتُ بأنني لن أسمعها أبداً، حتى من ليز، المرأة التي غازلتها وتزوجتها بعد ذلك، وبالفعل، لم أسمعها..

ماذا لو كانت الفتاة صادقة؟ وكنت فتى أحلامها بالفعل؟

في تلك الحالة، وبحكم ظرفي الحالي، كوني وزيراً في الحكومة، لا يمكنني فعل أي شيء، سوى البقاء ساكناً، وتلقي البرد والقشعريرة، في جحر إحساسي العجوز، وداخل منصبي الذي لن يسمح باختراقات المشاعر أبداً. لن أتقافز في الشوارع، من شدة الفرح، لن أكتب رسائل ملتهبة، على ورق وردي مطرز برسومات القلوب الحمراء، ولن أغامر بمرض ضغط الدم، أوصله لمرحلة التجلط.

سأحلم أحلاماً خفيفة جداً، لا تؤثر على ثقل الوزارة الذي أحمله في رأسي، أو ثقل الأسرة الذي أحمله على ظهري.

وصلتُ إلى البيت، وما زلتُ أترنح من سكر الجملة، كنتُ بلا سلطة، أزيح بها جملة طرية عن طريقي، بلا هيبة، تردع الجملة، وتعلمها الأدب.

أنزلني بكَّار داخل البيت وأغلق الجراج، وذهب إلى حياته في مكان بعيد، لم يسبق أن زرتُه ولا حتى تملكني الفضول لمعرفته.. كان تخشُّبُه الرسمي ينتهي حين أدخل بيتي عائداً من عمل، ويبدأ حين أنوي الخروج من البيت، في عمل، ما لم أستبْقِهِ لحراستي، حين أجلس في الحديقة أحياناً، أو أتمشى في شوارع الحي بغرض الرياضة. وهناك أوقات أخرج فيها بلا سائق ولا حراسة، وفي عربة أخرى، غير رسمية، هذه ليست أوقات بكَّار، ولا أوقات الحارس

الدائم الذي كان من الشرطة، ويرابط في كشك عند الباب، ولكنها أوقاتي الخاصة.

لن أهاتف سليمان مُبيّناً وجهة نظري، في مسألة نشر العقدة، الخاصة بالفتاة ميمونة، إن كان النادل القديم، قد فكر فيها، لأنه في الغالب، قد تخفف هو الآخر من أعباء إدارته الملعونة لي، وارتمى في أفضل ركن في بيته الصغير، على مبعدة ستة شوارع من بيتي، يقرأ رواية لأجاثا كريستي، أو اسكندر دوما، أو يستمع عبر جهاز تسجيل حديث يملكه، إلى أغنية: الطير المهاجر، وأعرف أنها ليست أغنيته المفضلة فقط، لكنها الأغنية التي ربما لا يعرف غيرها، أو لم يستمع إلى غيرها بعمق من قبل.

كان ما يزال أعزب، برغم تجاوزه الخامسة والثلاثين، لكنه لم يكن مهتمًّاً بالنساء قط، أو ربما لا تعجبه نساء الوطن، ويلهو بطريقته، حين يذهب في كل عام إلى المكان الذي التقطته منه، مدينة لوقانو السويسرية، مدينة المتقاعدين الألمان كما يُسمُّونها، حيث الجمال في أي شيء حتى في القبح.

-٢-

وقفتُ أمام مرآة كبيرة، في صالة البيت الرئيسة الواسعة لحظات، أصلحتُ من بذلتي ورباط عنقي الأحمر المنقط، ومحوتُ كل أثر للارتباك، الذي جئتُ أحمله. وفي أحد جيبي السروال الأزرق الذي أرتديه، عثرتُ على مسبحة غالية، بنية اللون، ولها لمعان مخيف، ورائحة آسرة، أخرجتها من مكمنها، أمسكت بها بيدي اليسرى، وجلست على أحد المقاعد في منتصف الصالة.

كنتُ أحسُّ بنعاس خفيف، ورغبة في التبول، وتغَزات سريعة، تروح وتجيء، في ركبتي اليسرى.

في العام الماضي، استشرت طبيباً مختصاً في العظام، بسبب تلك النغزات المتقطعة، وأخبرني بعد فحصوصات مكثفة في الدم، وصور بالأشعة، بوجود احتكاك متقدم في الركبة، بسبب السن غالباً، وأنني من الواجب أن أعامل تلك الركبة، معاملة حسنة، ولا أجهدها كثيراً بصعود الدرج وهبوطه، أو المشي لمسافات طويلة، أو حمل أثقال غير ضرورية.

كانت "حمل أثقال" هذه بالذات، غير ملائمة، وجملة زائدة في نصائح الطبيب، فليس من عادة الوزراء أن يحملوا حتى مشاعرهم الشخصية، ناهيك عن أثقال لا تخصهم، لكني وبرغم ذلك، انتبهتُ لتلك النصائح، لم أعد أمشي، إلا مسافات، لا تضجُّ معها الركبة، لا أحمل حتى كيس مناديل صغيراً في جيبي،

ودائماً ما أترك صعودي لغرفتي في الطابق الثاني، لساعة متأخرة، لا أتوقع أن أهبط بعدها وأصعد مرة أخرى.

كان البيت الذي أسكنه، منذ عينتُ وزيراً، مكوناً من طابقين ومليئاً بالغرف، والصالات، ومُؤثثاً بطريقة عصرية فظة، لم تتح للمسات الماضي الحميمة، التي كنتُ آلفها في بيت أمي، أن تتخذ ولو ركناً صغيراً فيه. إنها اختيارات ليز، وكل من يعرف ليز التي تزوجتها منذ عشرين عاماً تقريباً، وأعيش معها حياة منعشة حيناً، ومحبطة حيناً آخر، سيؤكد أن هذه الأطقم التي يقطر منها الغباء المترف، وتملأ الصالات والغرف، جاءت إلى أماكنها تلك، من دون استشارة لأحد.

كانت ليز معروفة بهوسها فيما يختص بترتيب البيوت، وقد عشتُ معها من قبل في بيتين آخرين، قبل أن ننتقل لبيت الوزارة هذا، ومن أهم أعراض ذلك الهوس، هو أن لا أحد يملك خبرة في فرش بيت أو تصميم جماله الداخلي، غيرها، حتى المتخصصون أنفسهم لا يعرفون.

حقيقة لم تكن مشكلة كبيرة، ولا حتى مجرد مشكلة، أن تنفرد "ليز" بتأثيث البيت، واختيار زوايا خنقه، وزوايا تنفُّسه، وأين تضع زهرة بلاستيكية، وشجرة حية، ذات رائحة مملة، إلى أي مدى ستمتدُّ بأوامرها، تلك السجادة المزركشة؟ وتصرخ في الحائط، تلك اللوحة الصارخة بحناجر الألوان كلها؟ وكيف سترتب جلوس الضيوف إن جاءنا ضيوف، وتمنع عبث الأطفال

بأواني الزجاج والخزف، إن صحب الضيوف أطفالاً معهم، وأبدى الأطفال اهتماماً وغداً بالتحف المبعثرة هنا وهناك؟ كانت باستثناء تصلُّدها في ذلك الشأن، امرأة جيدة إلى حدٍّ ما، لها حظ متجدد من الجمال، والمرح، وتبدو أحياناً في غاية العذوبة، لدرجة أخاف فيها أن تذوب.

وبالرغم من أنها لم تنجبْ أطفالاً، بسبب إزالة الرحم في سن مبكرة، نتيجة لنزيف متكرر، إلا أنها لم تبتئس، ولم تغير رونقها في تذوق الحياة قط، لم تُلغ تسريحة شعرها التي يبدو فيها الشعر، نهراً ليلياً، ناطقاً بالإثارة، لم تغير أحلامها، في أن تسمع صراخ أطفال في البيت، ولجأت في كثير من الأحيان، إلى دعوة أمهات حديثات الولادة، ليؤججن صراخ الرضع، داخل البيت، وأحياناً تزور بيت اللقطاء، أو بيت الأمل كما يسمونه، حفاظاً على مشاعر سكانه في المستقبل، تتأمل الأطفال، وتبدي رغبة في تبني أحدهم، لكنها تخاف أن يظهر من يختطفه منها مستقبلاً، وحين أتيتُ لها منذ عامين، بولد يتيم، في السادسة، من رحلة لي إلى غرب البلاد، وكان من أقارب حارسي، وسائقي بكَّار، ومات أبواه في حادث صراع قبلي، معتاد في تلك الجهات، وقلتُ لها: سيعيش معنا الصبي ضحية، ابتهجت كثيراً بالولد، لكن الاسم شك أذنيها وأثارها لدرجة السخط، احتضنت الولد، وهي تردد: ضحية هذا يُدفن في موقع الحرب والجوع والقتل هناك، إنه منذ اليوم: أيهم جمعة.

كان جمعة هو اسمي بالطبع، جمعة راضي الحداد، لكنها المرة الأولى التي أسمع فيها باسم أبيهم، ولم أجرؤ أن أسأل عن معناه، أو كيف خطر ببالها هكذا، في جزء من الثانية، وهي تبكي، والولد المتوحش، الخائف، مُنجرٌّ إلى أحضانها بالقوة، وتذكرتُ فجأة أنه أحد الأسماء التي اقترحتها لأبنائها القادمين منذ تزوجت، وأخبرتني بها، وخبأتها بعد ذلك داخلها، قبل أن تنهي إزالة الرحم كلَّ علاقة لها بالإنجاب..

سجلتُ الولد باسمي فوراً، وتم إخضاعه لفحوص طبية مكثفة، وحللت غُدده بحثاً عن هرمونات الجوع لاستثارتها، وهرمونات الشبع لإلغائها، بحسب إصرار ليز، وذلك من أجل القضاء على نحافته المزرية، وملء خديه الغائرين بمنظر يفتح النفس، والآن موجود معنا، يتعلم في مدرسة ذات طابع استعماري، وفي المساء يطيل التثاؤب، وينام جالساً على ركبتيه، وهو يتلقى دروساً إضافية مكررة ولا تنتهي، في كيفية أن يكون ابن وزير حالي، ووزير سابق، حين أخرج من الوزارة، وربما وزير ميت أيضاً، حين أرحل، لكن ليز لم تخبرني بذلك.

ليز نفسها، لم يكن اسمها ليز، أي أن اسمها الحالي، جاء متأخراً جداً، وبعد أن تعقدت الحياة في بيت أهلها كثيراً، وأصبح من المستحيل أن لا يصبح اسمها ليز، أو أي اسم آخر مقارباً.

كان والدها عاملَ بناءٍ بسيطاً تلقى تعليماً متوسطاً في الكتاتيب الدينية المنتشرة آنذاك، وكان رساماً مغموراً أيضاً، ذلك

النوع من الرسامين الذين لا يُجيدون الفن في حد ذاته، ولكن يُجيدون تعريف الفن، وتلاوة نظرياته المختلفة، ودائماً في أذهانهم لوحات مشهورة بشدة، يستطيعون وصفها بتأنٍّ وجمل واثقة من كثرة ما طالعوا صورها، واستمعوا إلى الأوصاف المتأنية التي قيلت في حقها. وقد عرفت ساعياً في مصلحة الضرائب، يرسم بالفحم في أوقات فراغه، ولم ينجز أي لوحة كاملة، ولا حتى ربع لوحة، يتحدث باستمرار عن لوحات الفرنسي رينوار، كأنه رسمها، أو شارك في رسمها، ولم أستطع أبداً أن أعرف، كيف عرف ساعٍ شبه أمي، رينوار، وتشبَّع بألوانه، وعرف أن لديه لوحة اسمها الأرجوحة، ويردد في كل وقت، يجد فيه أحداً مستعداً لتلقي الصداع:

الأرجوحة.. نعم.. الأرجوحة البديعة الفذة هذه رسمها بيير أوغست رينوار، عام ١٨٧٦، وتُصوِّر فتاة مليحة القد، تتأرجح على الحبل أمام عاشق من النبلاء.

كانت النبلاء هذه بالذات تخميناً من الساعي بلا شك، فلم تقل لوحات رينوار، إنها تحتوي على نبلاء أو أبناء شوارع، وإن كان الجمال الساطع في القرن التاسع عشر، وفي كل العصور، وأناقة اللبس عند الرجال، توحيان بالنبل بالفعل.

جعفر حماد، أو جعفر القديم، كما كانوا يسمونه، بسبب إصراره على استخدام لهجة أجداده البدوية، شبه المنقرضة، في التعاطي مع الحاضر، والد ليز، كان هكذا رساماً، ظل مبتدئاً

منذ أن عرف التخطيط على الورق الخشن، والأراضي الطينية، واستخدام الألوان، ومحاولات رسم الوجوه، في سن مبكرة، وحتى مات، وقد قارب السبعين.

كان قد بيَّن افتتانه بالرسام الإيطالي: ليوناردو دافنشي منذ أن عرف باسمه، وألمَّ بإنجازه، وصرح أن لوحته موناليزا، ليست مجرد ابتسامة غامضة، على وجه غامض، ولكنها الحياة المنشودة، لمن أراد حياة خالية من الهواجس. وفي سياق تهيُّجه هذا، لم يوضح أبداً، كيف تتحول لوحة مرسومة على قماش، لحياة منشودة خالية من الهواجس، لكن الشيء الذي فعله، هو أن سمَّى أولى بناته: موناليزا، سمى الثانية: موناليزا، والثالثة موناليزا: أيضاً، ويسأله موظف تسجيل المواليد في كل مرة، يأتي فيها، للتسجيل: ألم تُسمِّ هذا الاسم من قبل أخي الفاضل؟

يقول: لا.. وربما يضع على الطلب قرشاً أو قرشين، أو ثلاثة، وكان ذلك ترفاً في حينه، لا يفعله إلا المترفون، فيكمل الموظف عملية التسجيل، من دون أن يبحث عن شقاوة الكذب في لسانه العريض المشقق، أو يسعى لتقليب دفتره عامين وأربعة، إلى الوراء.

موناليزات جعفر، كبرن ونضجن، وتفردن بجمال نضر، وبالرغم من ذلك عانين من ألقاب موجعة، لم يكن الغرض منها، توجيه إساءة، أو استخدام بذاءة من أحد في حقهن، بقدر ما كان الأمر لمجرد التفريق بينهن، ومعرفة أي الموناليزات يخاطبون.

كانت أعمارهن متقاربة، وفي خد كل منهن شامة بنية، كانت في الحقيقة وُلدت مع الأولى فقط، وسعت الثانية والثالثة إلى رسمها على خديهما، لمجرد الغيرة والحسد، وقد سمعن أغنية شعبية، تتحدث عن خد متورد، عليه شامة، يترنح بسببه الرجال. لقبت واحدة بالحرباء، وأخرى بالبلهاء، بالرغم من أنها لم تظهر بَلَهَاً قط، وأمسكت الأم بالثالثة، وبمعاونة نساء أخريات، ثقبت أنفها، وزرعت فيه حلقاً كبيراً من القصدير، ليس بغرض الزينة، ولكن لتُلقَّب بذات الأنف المثقوب.

كان جعفر القديم، غير مهتم بكل هذا، ولم يحس بأي تعاسة أو بؤس، أو وخز من ضمير، وبناته اللطيفات، يتقلبن في الألم، كان كل ما يهمه، أن لا يتغير اسم موناليزا رسمياً بأي حال من الأحوال. وقد حكت لي زوجتي ليز التي كانت البلهاء، كل ذلك، وحكت كيف أن قريباً للأسرة كان مسافراً في أوروبا وعاد، قد غيَّر كل تلك الفوضى، بتحضُّر شديد، وصوت هادئ، وشفافية فائقة، حين ردَّد:

موناليزا الكبيرة: هي مونا. الوسطى هي: ليز، والصغرى ذات الأنف المثقوب: هي منى. انتهت المعضلة.

كانت حبات المسبحة تنزلق بين أصابعي ببطء، أسبح بلا تركيز، وأشاهد أمامي على الجدار المقابل، مجموعة من صوري التي أرادت ليز، بل قاتلت بضراوة لتكون هناك، كانت صوراً في غاية القتامة، تمثلني بكامل لوازمي الرسمية، أتقلب في المهام

المجدية وغير المجدية، أبدو مبتسماً أحياناً، في مطارات نسيتُ لماذا سافرت منها وإليها؟ وفي مدن وشوارع لا أذكر أبداً أنني طرقتها، أو لي ذكريات فيها، وتوجد صور روعي فيها أن تكون إنسانية جداً، حين توضع فتاة يتيمة دامعة العينين، ويسيل من أنفها المخاط، على صدري، وأبتسم، أو أنحني على مريض يحتضر، في عيد من الأعياد، زرتُ فيه المستشفى الحكومي، وصور أخرى عنت بالصحة، وإبراز الصبا والتفاؤل، أرتدي فيها الزي الرياضي، وبجانبي أثقال مختلفة الأرقام، لم أرفعها قط، وبالطبع لا بد من تلك الصورة الكبيرة المؤطرة بإتقان في ورشتي، والتي يوجد منها نسخ عدة، في كل صالات البيت، وغُرَفه، وحتى في المطبخ والجراج، وأعني صورتي مع الفريق، الرئيس الحالي للبلاد، والذي من المحتمل أن يكون الرئيس الدائم لها، ما لم يحدث طارئ ما.

كنتُ أبدو شبه مبتسم في الصورة بينما الجنرال مجعد الوجه، ونظراته كأقسى ما تكون النظرات. كنا عائدين من افتتاح سيرك متجول، في مدينة إقليمية قريبة، ولا أدري لم ذهبنا أصلاً، ولم يكن الأمر يستحق أن يذهب حتى فرّاش في القصر الجمهوري، أو عامل في وزارة الثقافة. لكن ذلك كان سمة من سمات حكم الفريق الهباش، ولا أحد يسأل أو يعارض، كان من الممكن جداً، أن يذهب لحفل ختان أطفال صغار، في حي شعبي، ولا يذهب لحضور افتتاح مؤتمر للقمة الإفريقية أو العربية، يُعقد في بلاده، أن يذهب لحضور جنازة سخل نفق في زريبة، ولا يشارك في دفن وزير من وزراء حكومته، إن مات.

مؤخراً أضيفت صور حديثة لي مع اليتيم ضحية، أو أيهم جمعة كما سمته ليز، وكان انتعش بالتربية الأرستقراطية الجادة، وتحوَّل إلى صبي مليح، من المؤكد أرضى طموح ليز إلى أقصى حد.

كان طيف ميمونة اللذيذ، يتحاوم من حولي، ولا أريد أن أصعد للطابق الثاني، ولا أن يهبط من ذلك الطابق أحد، حتى لا يرتعش الطيف ويفر صوتها الشاب المُغوي، يتحرك حول أذني، من أذن إلى أذن، وأساعد تلك المفردات الجمالية النادرة، أن تبقى أطول فترة ممكنة، بإغلاق عيني، ومحاولة الاسترخاء، برغم صعوبتها في ظروف كهذه.

فتى الأحلام العجوز، الآن مُدغدغ بالفعل، ويبدو أن فكرة إغواء عجوز، ومدّه بسمٍّ لذيذ، ستكون أبداً هي الطريقة المثلى، للفتيات المغامرات، على مر العصور.

السمُّ لن يكون سمّاً، لو كانت ميمونة في الأربعين أو الخمسين، لكنه الآن يسري بمتعة، ولا أستطيع تأديبه، أو طرده خارج دمي.

لم أكن في تلك اللحظة، وزير الثقافة قطعاً، ولا جمعة راضي، الحداد القديم، كنت عجوزاً في دمه سمٌّ فقط.

-٣-

حين التقيتُ ليز أول مرة، منذ أزيد من عشرين عاماً، كنت أملك ورشة للحدادة، بعد أن عملتُ سنوات طويلة مع المعلم جاد الرب، وشربت مهنته، وأيضاً طريقته في توسعة النشاط التجاري، وتنمية الثروة.

كنت طفلاً بالكاد أفهم شيئاً، حين وضعتني أمي عنده، وكان والدي البستاني في حديقة أحد الإنجليز، المستعمرين، توفي بسل الرئة، الذي كان بلا علاج في ذلك الوقت، ولم يترك سوى البؤس، وأطفالٍ ثلاثة، هم أنا وأخي صابر الذي مات مبكراً جداً بالحصبة التي لم يكن قد تم اكتشاف لقاح لها أيضاً، وأختي فاطمة التي تصغرني بعامين، وهاجرت إلى الهند منذ سنوات طويلة، مع زوج مخبول، عشق حضارة تلك البلاد، وأرادها وطناً بديلاً، وقد سعيت بجهد كبير، لمعرفة بلدتها في مقاطعة كيرلا، على الساحل الجنوبي للهند، وزرتها بالفعل، وأنا وزير مُبجل، محاط بالترف والجاه، والحراس، والبروتوكولات، وكانت هندية قحة، ترتدي الساري، والخلاخيل في الساقين، وحتى لغتها ما عادت لغتنا، وأبناؤها القُصّر والبالغون يصرخون كأنهم غوغاء في فيلم نمطي لشامي كابور.

حاولت تغذيتها بالذكريات المشتركة، بوجه أمي، بمآزق حيّنا القديم، بصراخ المجنونة مدائن، الذي كانت تعشقه، وتحاول تقليده، بصراخها هي حين ثقبوا أذنيها لتعليق قرط، فقاومت،

أن أمنحها شيئاً من المال، فأبت، وكانت تلك الزيارة هي الأولى والأخيرة لأخت، لم تعد أختاً بأي حال من الأحوال.

أنا أنشأتُ ورشة الحدادة الخاصة بي، وسعيت لأتعلم، وتعلمت بالفعل، ليس تعليماً جامعياً فخماً، ولكنه التعليم الذي يتيح لي أن أتحدث بلباقة، وأشارك في النقاشات، مهما كانت معقدة، وأقرأ شيئاً من الكتب في شتى ضروب المعرفة، ولا أضيع إن سافرت لأي مكان.

وكان أشد ما أذهلني في رحلة بحثي عن المعرفة، تلك التفاصيل الدقيقة لمهنة الحداد، وأن كثيراً من المراجع تمجّدها، تعتبرها فناً رفيعاً، وكنت أمارسها، ويمارسها من يعملون معي، بآلية مطلقة، وخطوات تعلمناها بلا أقلام ولا أوراق، ولم يقل أحد إننا غير جديرين، أو عمالٌ بلا علم.

ليز جاءت إلى الورشة ذات يوم، كانت تبحث عن إطار من المعدن الرقيق، يناسب لوحة لها، من رسم والدها، تمثلها ضاحكة بعمق، ومن حولها زهور قصد الرسام أن تكون متفتحة، بلا شك، وقد سميت اللوحة: أسنان الملكة؛ ربما لأن معظم مساحتها كان أسناناً فقط. أسناناً بيضاء لامعة.

كانت في الحقيقة، لوحة كئيبة، للغاية، وتوضح مدى إنهاك الفن بأشخاص مثل جعفر القديم، ولأنني لم أكن أعرفها ولا أعرف والدها، قلت أمزح بشيء من الجرأة، لم يكن عندي ولا أعرف كيف جاء:

– لوحة غير جديرة بك، جمالك أكبر كثيراً من هذه المحاولات، سأرسمك أفضل من هذا.

– هل أنت فنان؟

سألتني وأرى جوعاً عاطفياً في عينيها، لا أعرف كيف يكون الجوع العاطفي، وإن كان أحدهم يجوع بعاطفته، لكن ما خطر ببالي تلك اللحظة، أن ثمة جوعاً عاطفياً، تحمله تلك الفتاة الرقيقة الجذابة.

قلت: بعضهم يعتبرني فناناً، لكني في الحقيقة حداد، أقدر الجمال، وأرسمه بقلبي.

انتعشت الفتاة جداً، أفلتت اهتمامها باللوحة، وجلست على مقعد متسخ، في وسط الورشة، مسحته بمنديل من قماش رخيص، أخرجته من حقيبتها، وكانت جلسة غير مألوفة في ذلك الزمان، أن تزور امرأة شابة ورشة، وأن تجلس داخلها بلا مشقة ولا حذر، ولا تلفُّت مستمر.

كانت عيناها تتجولان في قطع الحديد، والإطارات الفارغة المزخرفة، والعمال الذين إما يصيغون أبواباً ونوافذ، وأشياء متعددة باستخدام اللحام المؤذي للعيون، وهم يضعون نظارات سوداء، وإما يفككون أغراضاً قديمة مصنوعة، تمهيداً لإعادة صياغتها أغراضاً أخرى.

كانت ترتدي قميصاً ورديا بلا نقوش، وقد غطت جزءاً من شعرها، بوشاح وردي أيضاً، وتركت خصلات سوداء، مجنونة، تتسكع في الفضاء بلا غطاء. كانت فتاة أحلام بلا شك، ولم أكن في ذلك الوقت، وبرغم بلوغي الأربعين، وأنني وحيد بعد أن ماتت أمي، وهاجرت أختي فاطمة إلى الهند، قد فكرت في فتاة أحلام، أو قمت بصياغة واحدة، أغازلها، أو أحتدُّ معها بسبب الغيرة، أو أهيج بها في الليالي اليابسة، كما يفعل كثيرون أعرفهم. كنت الحداد، المشغول بتنمية صنعته، وثروته، والذي ما زال يقيم في بيت يترنح من القدم، في حي شعبي، أقل كثيراً من حجم ثروتي، كان أبي قد تركه لنا.

لم أكن أملك وسيلة نقل خاصة، والحقيقة، لم يكن في الوطن كله من يملك عربة خاصة، ما عدا عدداً قليلاً من التجار الكبار، وموظفي الدولة الرئيسيين، وقد خرجنا حديثاً من الاستعمار، بنيل استقلال لا يرضي الطموح كثيراً، وليعود إلينا الوطن، مهلهلاً، وبحاجة لبراغي الدنيا كلها، حتى نوقف اهتزازه.

- سترسمني بقلبك إذن؟

- نعم.. هذا مؤكد.

- هل تعرف من رسم لي هذه اللوحة؟

- لا.. لكني مستعد لخنقه أو ذبحه بمئة سكين، إن وجدته.

ضحكت الفتاة، وكانت ضحكتها بعيدة تماماً عن ضحكة

اللوحة البشعة، ضحكة بحاجة لفنان حقيقي غير ذلك الذي رسمها، واكتشفتُ وأنا أتأملها تضحك، وأنسج لغة حوار مستوحى من تلك الضحكة الحية، أنني لستُ غشيماً في شأن النساء أبداً، وإنما موهوب عطلت نفسي بنفسي، اكتشفت وأنا أدير الحوار وأمطُّه وأعتذر بسبب تهوُّري في شأن صاحب اللوحة، بعد أن أخبرتني الفتاة بأنه والدها، وأحصل على اسمها، ووصف بيتها، وكيفية الدخول إلى المآزق الكثيرة في حيِّها الشعبي، والخروج منها، أنني خلقت محباً، لكن فقط لم أجرب الحب بجدية.

ربما عطلتني تجربتي الأليمة في العمل طفلاً، وعطلني التحدي الكبير، في طرق التعليم واكتساب المعرفة وأنا صبي، ثم عطلني الشَّرَه العنيد في تضخيم الثروة بعد ذلك.

أثنيتُ على نفسي كثيراً في السر، طلبت من أحد العمال الجيدين في الورشة، أن يضع لوحة الأسنان البارزة، في أفضل إطار لدينا، ويعيد زخرفته، وقلت للفتاة المرتعشة، والمبتسمة بحذر، والتي أربكها تطور الأمر إلى احتمال زواج:

– اذهبي الآن يا ليز، سآتي باللوحة غداً ومعها رغبات أخرى أشد فتكاً، هل تتزوجين حداداً في الأربعين، من المحتمل أن يصبح وزيراً ذات يوم؟

كنت أمزح بكل تأكيد، أعني في أمر الوزارة، فلم تكن أحلامي في التمكن، والتي قدتها في دروب وعرة كثيرة، قد وصلت إلى كرسي الوزارة.

كانت الوزارات قليلة، والسياسيون الطامحون، كثيرين، وبيئة ما بعد الاستعمار، ما تزال شديدة القذارة وبحاجة إلى سنين من التنظيف. ثمة عملاء للمستعمرين، ما زالوا موجودين وإن استبدلوا ثيابهم، بثياب بدت وطنية، ثمة متعلمون رضعوا ما سموه الحداثة، ويحاولون إرضاع الناس الحليب نفسه. ثمة أحزاب ولدت من أي رحم؟ لا أحد يعرف، وابتدأت طقوس الصراع، وثمة نساء فوضويات، خطرات، يدرن صوالين مظلمة، فيها كل ما يبهج ويدمر في الوقت نفسه.

كنتُ أمزح وضحكت عالياً، وضحكت الفتاة، ربما مجاراة لضحكي وربما إعجاباً بالنكتة السياسية البلهاء، ليز الجميلة الهادئة، التي أربكتها، وسأربكها غدا حين أغربل الحارات المغبرة، في حي دومة الشعبي، وأصل إلى بيتها، وأرى ماذا سيكون رد جعفر حماد، أو جعفر القديم، كما أخبرتني بلقبه في تلك الجلسة الطويلة المرحة.

-٤-

فجأة، وأنا ما زلت في جلستي، في صالة البيت الرئيسة، أتأمَّل، وصل إلى سمعي، صوت حديث سريع، متتابع، بصوت غاضب جداً، كان يأتي من الطابق العلوي، حيث لا بد توجد ليز، وخادمتها المقربة: هيلانة، وكانت سيدة ممتلئة الجسم، من أقاربها البعيدين، وتعمل عندها منذ أكثر من خمسة عشر عاماً. كانت في السبعين، وبالكاد تمشي أو تتحدث، بسبب السمنة، وأمراض ترهل العمر، لكنها تجيد الطاعة، لدرجة أنها قد تظل واقفة في أي مكان فيه أوامر، يومين كاملين، إن لم يطلب منها أحد أن تجلس.

كانت هناك خادمة أخرى، شابة، أو فلنقُلْ أكثر ملاحة، وحيوية، وإراحة للعين حين تلتقطها، من هيلانة المسنة. كانت تتجول في البيت كله، تنظف وتعيد التنظيف، وتغسل وتعيد الغسيل، وتكوي الملابس، وتعيد الكي، وفي كثير من الأحيان، تتم مساءلتها من ليز، في هذا الوقت بالذات، وبذلك الصوت الغاضب الذي سمعته. وأغلب الظن، أنها ستحس بالصداع، وستبكي، وقد تسيل دموع على خديها، وقد يكون بكاؤها مجرد أصوات فقط، ثم ينتهي كل شيء، إنها مرجان المسكينة، مرجان الإثيوبية التي أتعاطف معها كثيراً، وأردِّد في سري: لو كان نهداها أكبر قليلاً، ولو كان صوتها أكثر موسيقية، لو كانت تقلم أظفار

قدميها باستمرار؟ ولو تجرأت، وحزمت وسطها، ورقصت في ذلك الحفل الكبير، الذي أقامته فرقة: لبيك يا قلب الإثيوبية، على مسرح نادي أصحاب العمائم، في وسط العاصمة، في العام الماضي، وحضرته بصفة شخصية بحتة، لربما تزوجت من فاعل خير، يقدر إنقاذ الغرقى، وانفلتت من مساءات الهيستريا عند ليز، وفكرت كثيراً، في تصنُّع طردها من البيت، ثم اللحاق بها في الشارع، وتعيينها موظفة في وزارة الثقافة، وأعرف أنها تحمل دبلوماً في الطباعة على الآلة الكاتبة، وملمة ببعض نظريات تصميم الكتب، والنشرات الصحفية، لكني خفتُ، وتلك الأشياء الصغيرة، التي يقصد بها عمل الخير، غالباً ما يتم إيصالها ضخمة للغاية، ومعها تقرير عن الشر، إلى من يهمه الأمر.

سكن الصوت الغاضب أخيراً، أعقب ذلك بكاء متوسط القيمة المأساوية، واستطعت أن أميز صوتاً مغروراً، يطلب كوباً من الحليب، لا بد من هيلانة العجوز، التي اعتادت حضور طقس التوبيخ ذلك، كجزء من روتين البيت، وربما كانت تستمتع بذلك الحضور، لا أحد يدري.

إنه صوت ضحية، الطفل، ذي الثمانية أعوام، أيهم جمعة، الذي يتم إعداده على مهل ليصبح إمبراطوراً.

كان إحساسي بالنعاس قد ازداد، وإحساسي بالرغبة في التبول قد وصل حداً خطراً.. أفلت طيف ميمونة الجميلة كاملاً،

ونهضتُ أمشي ببطء، وأدخل أقرب مرحاض إلي لأفرغ مثانتي، جلست على مقعد المرحاض النظيف، أمامي على الجدار المقابل رسومات جادة وهزلية معاً، وُضِعت هناك بوصفها ديكوراً داخلياً جميلاً، أو ملهاة من الألم، في لحظات الإخراج الصعب التي قد يمر بها الناس كلهم. كانت ثمة رسومات لكلاب تعض شجرة، وقطط منفوشة الشوارب، تطارد أسداً، وكاريكاتور مشهور، عبارة عن حوار قصير، بين كتابين مفتوحين، ينتهي بمعركة، رسمه فنان مجهول.

هذا المرحاض بالذات لم يكن مطروقاً، وأعني لا يدخله أحد إلا نادراً، واليوم دخلته بعد غياب طويل، لأنه كان قريباً مني وكنتُ أتوجع.

فوجئت بأن مثانتي، متوقفة عن العمل.

نعم، فقد كنتُ أضغط والوجع يشتد، ولا تخرج سوى نقاط محدودة من سائل داكن ومعكر.

إذن، فقد أصبتُ بما كنت أخشى أن أصاب به طوال حياتي. وبالمصادفة البحتة، يحدث هذا في اليوم الذي أصبحت فيه فتى أحلام أول، لواحدة غضة.. وزهرة.. في عشرينات العمر.

إنها أعراض تلف العمر، التي لن تتوقف هنا، وستأتي في كل يوم جديد، بحيلة جديدة.

اليوم: حبس التبول، وغداً ربما تجلط في المخ أو الساق، وربما اعتلال في الكبد، وربما عدم القدرة على الوقوف على قدمي، وأحس من جديد بأنين الركبة، يشارك في مهرجان إقالتي من الأحلام.

أضغط، وأضغط، وتكاد مثانتي تتمزق، ولا شيء.. لا شيء أبداً.

ليقُمْ سليمان صافي بنشر العقدة إذن، حتى أقول بأن الحلم لم تجهضه العلل، ولكن أجهضه مدير مكتبي.

يا ليز.. صرخت ولا أستطيع الوقوف من الألم والصدمة.

يا ليز.. وإجهاد ملعون تصيح به عظامي كلها.. تصيح به خلاياي.

لم أقل يا هيلانة، لأن بروتوكول الخدمة أياً كان نوعها، لا يسمح لخادمة منزلية بإسعاف وزير جالس على مرحاض، وعنده عورة.

لم أقل يا .. مرجان الباكية ذات النهدين الصغيرين.. لأن بروتوكول الخدمة، معوق في حالتها أيضاً.

وصرخت يا ليز، وكان من الطبيعي أن أصرخ: يا ليز.. يا ليز..إنها امرأتي، وتدرجت في الشراكة الزوجية، من شراكة حداد إلى وزير.

في وسط الألم، خطر لي خاطر مرعب: ماذا لو كنتُ صحت: يا ميمونة، وأظن نفسي صحت باسم ليز؟

ماذا لو حدث هذا؟ وسمعته ليز، وجاءت لتسأل عن هوية ميمونة هذه، قبل أن تفكر في إسعافي.

كنت مشوشاً فعلاً، والخاطر المكهرب، يتحداني ويتحدى ألمي، ويظل موجوداً في لحظة البحث عن مخرج لاحتباس تبولي..

يا ليز.. وأيضاً لم أكن متأكداً إن كنت نطقت باسمها أم اسم العشرينية الرائعة.

-٥-

كان حي دومة الذي يقع قريباً من الوسط، من أقدم أحياء العاصمة، وأكثرها كثافة في السكان، منه انطلقت أسماء كثيرة، كبرت ولمعت. أسماء في الفن والتجارة، والسياسة، وكرة القدم، وحتى في القتل والسرقة، وقطع الطريق. وقيل وضع نواته، الشيخ دومة، أحد المتصوفة القادمين من بطن أفريقيا، في القرن السابع عشر، حين أوقف بعيره في تلك البقعة الجرداء آنذاك، تشمم الهواء قليلاً، وانشغل ساعة بتأمل عميق وهو يضع يده على خده الأيمن، ثم ردد مخاطباً أصحابه:

ليكن مقرنا هنا.. إنها بقعة طاهرة.

ولأن لا تاريخ مروياً في الكتب، ولا شفاهياً موثقاً عن تلك الواقعة، فقد انتعشت روايات أخرى عن إنشاء حي دومة، وتناقلها الناس بقوة حيناً، وبضعف أحياناً. منها رواية الممثل الهزلي: شمس الدين حسن دومة، الذي قال إن الحي، من إنشاء جد جده، ولم يكن شيخاً، ولا شيطاناً رجيماً، لكنه مجرد شخص عادي، متذمر، سكن في ذلك الخلاء وحيداً، وأحاط به الناس رغماً عنه، بعد ذلك، رواية أخرى من العجبين، الذي كان رحالة إنجليزياً اسمه شارلس بود، واتخذ اسم العجبين القروي القح، لأن القرى تهمه، كما قال، والزي الشعبي للقرى يفتنه، واسم دومة موجود في القرى بكثافة، وبذلك فإن الحي لا بد أنشأه قرويون مروا بتلك الأنحاء ذات يوم.

كانت ثمة رواية ثالثة، متداولة، التقطت من فم الضريسة، وهي امرأة من بقايا رقيق السلاطين الذين حكموا البلاد، في عصور سابقة، أقسمت أن حي دومة هذا، كان موجوداً منذ أزيد من قرنين، وقد عملت فيه جدة جدتها، في وظيفة عفريت، وكانت وظيفة العفريت، منتشرة في ذلك الزمان، ويقوم شاغلها بإخافة الأطفال الأشقياء، ولصوص الدواب، والسحرة المتغطرسين الذين يمرون بالبلاد، وفي جرابات الجلد التي يحملونها، كل حيل المرض والموت، وعرضت الضريسة في برنامج تراثي، تلفزيوني، أغراضاً عدة، منها صبغة سوداء، وثوب قديم من جلد الذئب، وستة قرون حمراء، ربما كانت لثيران أو غزلان، وطُلِيت بلون الغضب، وقالت: هذه بعض أغراض جدة جدتي.

مقابل ذلك كانت توجد وظيفة الملاك أيضاً، وهذه وظيفة مُبجّلة، وأكثر فخامة من وظيفة العفريت الضحلة. كانت تختص بنشر المحبة، ومداواة المشاعر المجروحة لأي سبب، بما في ذلك الأسباب الواهية، مثل سوء الجيرة، ومطالعة الغسيل القذر هنا أو هناك، ونظرات البنات الاستفزازية، والنكات السخيفة التي لا تضحك، أيضاً ثمة مجال كبير لمنح المقهورين، والخارجين من الحروب القبلية الفظة، والأوبئة، وقرصات الحشرات المميتة، مثلاً، فرص أن يستجموا في ظلال وارفة من الإلفة والسلام.

كانت وظيفة صعبة الشروط، ولم ينلها طوال فترة تفعيلها، سوى عدد محدود من الناس، اختيروا بطرق معقدة، وبعيدة عن

أي تعاطف. وقد ادعى مدير مكتبي: سليمان صافي، أن جد أبيه، كان ملاكاً، وساهم في تعديل السلوك الطائش لأبناء الطبقة الراقية في زمانه، وكان لديه مساعدون، لتدريب الحمير على حمل الأثقال، بلا تذمر، والأحصنة، على تحمل ثقل البشر، وسمومهم، وأبراج ضخمة من الخشب والصفيح، لتربية حمائم السلام، ونثرها في ساعة الأزمات والحروب، لكني لم أصدقه بالطبع، ولا صدَّقَه أحد من الذين تعودوا الاستماع إلى ذلك الحديث، الذي يُردِّده كثيراً، فلم يكن يبدو حفيداً لملاك بأي حال من الأحوال، ولو قال إن جد الجد كان عفريتاً، أو شيطاناً، أو حتى إبليس نفسه، لصدّقناه على الفور.

ذلك اليوم الاستثنائي المشبع بطعم خاص، هبطت من حافلة النقل العام، رقم دي إكس، في وسط حي دومة، حيث تنتهي الرحلة. وقد أنشئت شركة حديثة للنقل في البلاد منذ عامين، أي في أواخر حكم الاستعمار، وضمت إليها عدداً من الحافلات الجيدة، من ماركة زفير، وفوكسول، والتي تخضع لمراقبة دقيقة، لمنع أي تدخل عشوائي في زركشة هيكلها، أو انتزاع الوسائد المريحة من مقاعدها، أو تدمير تلك المقاعد، وكتابة تذكارات الحب والهجر، على سقفها وأرضيتها اللامعة، أسوة بما يحدث في كل شبر من أشبار العالم الثالث الكئيب.

مضيت أنقب الحي، لا يقلقني الضجيج المتكاثف، ولا تخنقني رائحة الطبخ الرديء، وليس في ذهني أي احتمالات

أن تفشل مهمتي، ويردني الرسام ، والد ليز، بلا ليز، وأعود إلى ورشتي، وحياتي نفسها، رجلاً تجاوز الأربعين، بلا حبيبة ولا زوجة، قدرية تعيش من أجله.

كنت أمشي فقط، أمشي وأتلفت، وأتخير الذين سأسألهم:

- أين بيت جعفر القديم يا أختي؟

وتتجاوزني المرأة المنسقة، مغطاة الوجه، بلا أي رد، وتبدو أصابعها المكشوفة، سوداء، مزخرفة بالحناء.

- أين بيت جعفر القديم، يا ولد؟

أسأل صبياً أعرج، متسخ الثياب، ويبدو عاملاً في إحدى كمائن الطوب، التي بدأت تنتشر بازدياد فرص التعمير، ومحاولات بعض الناس مجاراة الحداثة باستبدال مساكن الطين، والصفيح، بمساكن الطوب الأحمر.

- جعفر القديم... جعفر الجديد، جعفر الغبي.. لا أعرف بيته.

أجاب بلؤم وتفاهة غريبة، وابتعد.

- أين بيت جعفر القديم يا خالة؟

وتأكلني المرأة المسنة التي استوقفتها، بعينين بدتا لي جائعتين، وربما تعودتا على نظرات الجوع.. حتى وهما في قمة الشبع.

لا بد أنها هضمتني الآن، لكن طعمي لم يعجبها:

- بيت موناليزا الحرباء، وموناليزا البلهاء، وموناليزا ذات الأنف المثقوب؟

- نعم .. نعم خالتي.

- لا أعرفه.

أجابت بلؤم أيضاً، ومضت من أمامي، تتدحرج بخطوات بطيئة مكسرة.

- بيت جعفر الرسام أخي العزيز، هل تعرفه؟

وهذا رجل في مثل عمري تقريباً، ويشبهني في كونه يرتدي ملابس إفرنجية، في مكان من النادر أن يبدو فيه أحد إفرنجياً.

بدا لي موظفاً في الدولة، أو جامع ضرائب، يتسكع في حي ربما يخرج منه بشيء، خاصة أنه كان يحمل ورقاً أصفر، ويضع قلم رصاص خلف أذنه.

- نعم أعرفه.. إنه في جهنم... هههههه.

ضحك، وأخذ يصيح: يا جعفر القديم.. يا ساكن جهنم.. يا جعفر الكلب.. يا ساكن جهنم.

ارتعبتُ، وأسرعتُ في المشي لدرجة الركض، كنت أسأل مجنوناً، يا إلهي، ما أصعب المهر يا ليز البلهاء.

- أين بيت جعفر حماد؟ الرسام جعفر القديم.. يا حاج. هل تعرفه؟

الرجل الذي كان في حوالي الستين أو الخامسة والستين، يبدو فخماً، بثوب أبيض مغسول، وعمامة من قماش متماوج، ويركب حماراً جيداً، ذا ظهر عريض.

- نعم أعرفه.. أنا جعفر القديم.

هبط الرسام عن حماره، وأطالعه بشغف، أحاول أن أنتزع ملمحاً يخص ليز الجميلة، من وجهه. كان أنفه كبيراً بعض الشيء، وعيناه واسعتين وفيهما بقايا رمد، وجلده أملس، وليس ثمة شارب أو لحية على وجهه. وحين وقف بمحاذاتي، كان طويلاً، أطول مني بسنتيمترات عدة.

كنا أمام بيته بالتحديد، ودخلنا على الفور، وكان البيت بالضبط، مطابقاً لبيوت تلك الفترة كلها تقريباً. ثمة حوش كبير، ممتلئ بأسرة الخشب، المنسوجة بالحبال، بلا ألحفة ولا وسائد. ثلاثة أزيار من الفخار المحروق، على قاعدة من الطين، مغطاة بأغطية من السعف، وأعلى غطاء إحداها، إناء من الفخار أيضاً. ثمة مبنى طيني صغير في وسط الحوش، وزريبة ملحقة بالبيت، حيث الحمير، وربما بعض الضأن والماعز.

لم يكن بيت رسام قط، والمذهل في الأمر، أن الفترة نفسها لم تكن فترة استنارة كبيرة، ليخرج فيها رسام أو شاعر، أو كاتب خواطر صبيانية حتى. ولتأتي أسماء إفرنجية لفنانين، ولوحات، يمجدها البعض، ويلتقط منها جعفر القديم اسماً لسلالته كلها.

جلست على أحد تلك الأسرّة، أتشمم اللحظة، باحثاً عن رونق ليز. وكنت نسيت أن أحضر لوحة الأسنان الضاحكة، أو أسنان الملكة كما سميت، لكن لا يهم، وإن سار مخططي كما وضعته، فيمكنني إحضارها في أي وقت آخر.

كان الرسام العجوز، والذي يعمل أيضاً في بناء البيوت الطينية لا يزال، قد جلس قبالتي على سرير آخر، كان صامتاً، ويبدو أنه ينتظر كلمة مني.. مؤكد كان يعرف بزيارتي، وربما كان على ظهر حماره منذ الصباح الباكر، يغربل حي دومة من طرفه العامر، إلى وسطه الضاج، إلى طرفه الآخر المهجور، بحثاً عن غريب، يسأل عن بيته.

لكن أين ليز؟

تلك الأيام، كان صوت المرأة من الخفوت بحيث لا يمكن أن يسمع في أي محفل. وجهها لا بد من إخفائه حتى لا يفتن الرجال، ولا أعني تغطية الوجه، وإنما الإخفاء المعنوي، أي أن تمر المرأة في الطريق، بأقل قدر من لفت النظر، ولولا أن جعفر حماد كان مثقفاً وفناناً نشطاً، برغم ضعف موهبته، لما كان بالإمكان رؤية زوجته، أو أي واحدة من بناته بهذه السهولة التي شاهدت بها ليز وافتتنت. لكن هنا، في حي شعبي مثل دومة، سيكون الأمر مختلفاً قطعاً، سيكون الرسام صارماً جداً، ولن تخرج ليز من ذلك الصرح الطيني المغروس في وسط الحوش لتحيي عريساً مفترضاً. كنت أعرف ذلك وأتوقعه، ولا أرفضه. وقبل أن أبعد

خواطري عن ذهني تماماً، وأعود لأواجه مضيفي بما جئت من أجله، امتلأ البيت برجال كثيرين، نبعوا فجأة ولا أعرف من أين؟ كانوا جيشاً من الجلابيب والعمائم، جلابيب نظيفة ومتسخة، عمائم جيدة، وممزقة، غطوا أسرّة الخشب المبعثرة كلها، وكانوا يمدون لي أعينهم، وأيديهم تباعاً قبل أن يجلسوا.

- عثرتَ على بيت جعفر حماد إذن؟

قال أحدهم..

- أخبرتني أمي أنك تبحث عن بيت جعفر القديم.

قال آخر..

- أبي شاهدك تبحث عن بيت جعفر.

أختي قالت..

ابن أخي لمحك..

جدتي،

قال آخر، وثالث ورابع.

وبدا أن دخولي الحي، وسؤالي بالرغم من أن أحداً لم يدلني، كان برنامج ذلك اليوم الرئيسي، ولو جلستُ أكثر، لربما ربطوني إلى جذع شجرة جاف من تلك الجذوع المتآكلة في الحي، وقسموني إلى لقم صغيرة، والتهموني..

لقد عشتُ في حي شعبي مشابه، وما أزال أعيش فيه، وشاهدتُ الفضول لدرجة المرض عند سكانه، وكانت أمي نفسها، محشورة في أي شأن طبيعي أو غير طبيعي يحدث، لكن مثل هذا الحشد لم يصادفني قط.

وقفتُ، قلتُ لمضيفي هامساً:

- إنها موناليزا البلهاء، ليز، على بركة الله؟

قال هامساً وثمة آذان عدة، تمطَّتْ لتستمع ولم تلتقط شيئاً:

- على بركة الله.

همستُ: سيكون الزواج بعد شهر، وسنحتفل في الساحة الكبرى أمام ورشتي.. في وسط البلد. ورشة راضي للحدادة، وإطارات الصور.. أنا جمعة راضي الحداد.. على بركة الله؟

همس: على بركة الله.

همستُ: سأذهب الآن، ويمكنك زيارتي في الورشة لاستلام المهر، وتحديد بعض الأشياء.. على بركة الله؟

همس: على بركة الله.

رفعتُ صوتي: لن أدفع ولا قرشاً واحداً، مقابل لوحة فاشلة لا تعجبني.. غابة الفردوس هذه، ليست لوحة منسقة، فيها أسود ونمور تحتاج لشيء من الذوق.

وبالرغم من أنني اخترعت اسم تلك اللوحة، ووصفتها بعدم التناسق، إلا أن الرسام الحداثي، تصنَّع الغضب وهو يقول: أنت حر.

لعل ليز كانت قريبة في تلك اللحظة، وقد انتهت مساءلتها للإثيوبية الباكية، ذات النهدين الصغيرين، وسمعت اسمها يأتي من مرحاض ما في صالة البيت، أو لعله ضحية، اليتيم المتكبر، وكان يركض في الدرج وانتبه، وممكن جداً أن لا يكون ثمة أحد سمعني، وأنني قمت بنفسي وتدحرجت إلى المكان الذي ستبدأ إجراءات إسعافي منه.

المهم أنني كنتُ مستور العورة، ومحشوراً في عربتي الرسمية، ويقودها سائق جاري وزير الاقتصاد الذي كانت بيني وبينه خصومات مزمنة، بسبب تدخله في موازنة الثقافة، ومحاولة إنقاصها كل عام، لكنه أرسل سائقه الموجود في تلك اللحظة، متغاضياً عما بيننا.

لم يكن بكَّار موجوداً، وقد ذهب إلى وكره كما ذكرت. كانت ليز بجانبي، والولد بجانب السائق، غير مهتم بصراخي وطلبي من السائق أن يسرع، ومنهمك في إشغاله وسؤاله عن أفضل ماركة سيارات موجودة في العالم؟

-٦-

حين وصلتُ المستشفى، الحكومي الكبير، بعد ساعة ونصف الساعة تقريباً، بسبب زحام الطرق، وغباء سائق وزير الاقتصاد الذي ذهب إلى بيته ليتغدى أولاً متجاهلاً، كل رصاص معنوي، أفرغته في أذنيه، وكان برغم كآبته واتساخه، يحوي جناحاً مخصصاً للمرضى الذين لا يودون أن يصادفهم أحد من العامة، ومزوداً بوحدة للطوارئ، وغرفة عمليات صغرى، تجرى فيها الجراحات البسيطة، كان كل أوغاد الخدمة العامة، في وزارتي، قد عرفوا بطريقة أو بأخرى، وغالباً من الخدم الذين يحبون السعي في عمل الخير، والشر معاً، ومستعدون لطي المسافات لإيصال رسائل هامشية، لم يكلفوا بإيصالها.

كان الأوغاد قد وصلوا إلى المكان في زمن قياسي غريب، واصطفوا في مدخل الجناح، بالطريقة نفسها، التي يصطفون بها لاستقبالي، حين أذهب لأي مكان في مهمة رسمية: كان بكَّار بابو قد جاء من وكره العشوائي، وشاهدت نظراته تتألم، ليس من ألمي قطعاً، ولكن أسفاً على العربة الهنتر الرمادية، الرسمية، التي قادها سائق غريب، في غيبته. سليمان صافي جاء أيضاً، وأرى حذاءه الأسود، متسخاً على غير العادة، وقد نسي أن يرتدي جوربيه، ويضع نظارة الشمس على رأسه، نوعاً من اختراع استايل، كما يسمونه. جاء شوبار الهندي، حارس بوابة الوزارة السابق، الذي كان في الخامسة والسبعين، وأحلته للتقاعد منذ

عامين، بسبب سنه، ومرض شبيه بالجذام، على جلده، ومازال يعمل، لا أدري بأجر أو بدون أجر؟ وأكاد أشم أنفاسه المدهونة بدخان السجائر، بالرغم من أنني كنتُ بعيداً وعلى مقعد متحرك، وجاء الدب حسن، الذي كان اسمه الدب حسن بالفعل، وليس مجرد لقب، وكان قصيراً ونحيلاً، ويابس الوجه، ويبيع الولاعات وأقلام الحبر، وفرش الأسنان، ونوعاً من الحلوى المصنوعة من الزنجبيل، في كشك صغير أمام باب الوزارة، كنت أنا من سعى لدى الجهات المختصة، كي يحصل عليه، لكن المأساة الكبرى حقيقة، كانت حين شاهدت: سكر، سكرتيرة الوزير السابق، التي أبعدتها عن مكتبي في أول يوم استلمت فيه العمل، تظهر فجأة وتختفي، بزركشتها وألوانها كلها، وحين رأيت ست النساء، التي ظهرت فجأة في حياتنا منذ أربعين عاماً، وادَّعت أنها أختي في الرضاعة، ولا أعرف إن كانت صادقة أم لا؟ ولا أذكر وجه الثعالب ذلك، الذي تحمله قط، ولا أمي نفسها، تذكرت أنها أرضعت ضباً أو سلحفاة، أو كلباً متشرداً.

كانت آخر مرة، رأيتُها فيها، منذ ستة أعوام، أي منذ بداية عهدي بالوزارة، والكرسي ساخن ما يزال، وقد وظفت زوجها حمّالاً في المطار وكان أسوأ حمال أوظفه، بشهادة رئيسه وزبائنه، وكل الحقائب التي شارك في حملها، وأتلف محتوياتها، وابنها المصاب بضمور في العضلات ولا يستطيع المشي، محاسباً بمصلحة الضرائب، بالرغم من أنه لم يدخل مدرسة قط.. هي

نفسها وظفتها عاملة في مصنع للملابس، يملكه تاجر أعرفه.

كان ظهورها بهذه الطريقة الغريبة، وفي توقيت شديد الوجع، ومكان لم أتوقع أن أرى فيه حتى نفسي، قد ضاعف من ضغط السائل المعتوه على مثانتي. مؤكد أنها تبحث عن معونتي مجدداً، وقطعاً في شأن ابنها الآخر الذي كان في الثانية عشر من عمره منذ ستة أعوام، والآن لا بد كبر، ويبحث عن وظيفة.

صرختُ من مقعدي المتحرك، الذي يدفعه عامل صلد: لن أوظف ابنك فرج، في أي مكان... أقسم أنني لن أوظفه، لن. اذهبي يا ست النساء من هنا.

التفت الناس كلهم ناحيتي وناحيتها بالتعاقب، بدا أنهم متشوقون لمتابعة مشادة من نوع خاص، فلا أظن أن أحداً شاهد وزيراً يصرخ في امرأة من عامة الشعب، من قبل.

– ولماذا لا توظفه يا جمعة؟ هل ستدفع له من جيبك أيها البخيل؟

جاءني صوتها حاداً، ووقحاً، وأظن أن هناك من استغرب، وهناك من ضحك، وهناك من تحرك بحسٍّ أمني صرف، ناحيتها، لعله حارسي بكَّار المتيبس، أو حارس آخر من حراس المكان، يبحث عن مجد ما. كان من حسن الحظ أنها لم تسمع بعبارات مثل: الدموي، والسلطوي، والانتهازي، التي يستخدمها الأوغاد في حقنا، وإلا لاستخدمتها كلها.

سترى حين تفرغ مثانتي، وأعود إلى هيئتي وهيبتي، سترى.

وقبل أن أصيغ رداً مناسباً، أرميه في وجهها، كان العرض الجماهيري قد انتهى، دخلنا أنا وليز التي نادت بكّار، اقتلعته من ألمه على السيارة، وأوصته، أن يعيد الولد الصغير إلى البيت، أغلقت الأبواب من خلفنا، لتبدأ مرحلة نحري في السر، وإعادة بنائي وزيراً صالحاً بدنياً لأداء مهامه.

كان أغرب ما في الأمر أنني كنتُ مستسلماً، وفظّاً في مواجهتي لفضيحة استقبالي عند بوابة المستشفى، وأنا مبتلٌ بالعرق، ومنكوش الشعر، ومتورم المثانة، وعلى مقعد متحرك، وباستثناء صراخي في وجه: ست النساء، الوقحة، المتعدية على رضاعتي بلا وجه حق، لم يبدر مني ما يؤكد أنني أحمل مشاعر يمكن أن أبكي بها، أو أضحك بها، أو أجمدها بلا أي تفاعل. الشيء الآخر المذهل، هو طيف الفتاة ميمونة، هذا الطيف صعب المراس، ومصرٌّ على البقاء في ذاكرتي، أو لعل ذاكرتي هي التي كانت صعبة المِراس، وتصر أن لا تفلته. ربما الاتكاء على هذا الطيف، سيعينني على تحمُّل ما سيحدث، تماماً مثلما أعانني الإمساك بيد ليز، في بداية تعرفي على الجمال. لكن ليز الآن ليست ليز ذلك الوقت، هي عندي وليست في داخلي تماماً، وأنا عندها، ولست في داخلها تماماً، واليتيم ضحية- أيهم، محور آخر لديها، أظنه أكثر ثراءً من محوري.

فجأة وممرضتان متمرستان تساعدانني على الاسترخاء، على

طاولة نظيفة، ليفحصني الطبيب، تذكرت أن اليوم يصادف الذكرى الخامسة والثلاثين لرحيل أمي، وخفتُ.. خفتُ جداً.

خاطر آخر داهمني بشدة، وخفت أكثر: هل فعلاً أن أولئك الأشخاص: سليمان صافي وبكَّار، والدب، والهندي، وسكر، وست النساء الوقحة، كانوا هنا، واصطفوا لاستقبالي، واشتبكت معي ست النساء لفظياً، واشتبكت معها، أم أنني توهمت ذلك؟

قلت للخاطر الكئيب اذهب.. اذهب أرجوك، لا أنقصك، لكنه كان قد تمكن مني تماماً، وإن صح، فإنني علقت في الوهم أيضاً.

قلت هامساً وأنا أتحاوم حول السؤال ولا أسأله صراحة:

– من الذي سيعيد أيهم إلى البيت يا ليز؟

ردت وهي تمسح بيدها على جبهتي العرقانة:

– السائق الذي أحضرنا.. سائق وزير الاقتصاد.. ليس هناك أحد غيره.. ألم ترني أسلمه الصبي؟

إذن كان الأمر هلوسة فقط، وهلوسة غريبة. لا ليست غريبة، مؤكد أن الألم الذي ينحرني الآن، ضالع فيها.

مؤكد أن ذلك يحدث كثيراً مع الموجوعين، مثلما يحدث مع المحمومين، وكانت مرتي الأولى التي أتذوق فيها وجعاً بهذه العدائية. صحيح أنه ليس أشدَّ صخباً من وجع الأضراس الذي

جرّبته مراراً، ليس أكثر زفارة من صداع ضغط الدم، ولا أكثر حيوانية من وجع الفقد الذي جرّبته في أبي، وأنا صغير، ثم أخي صابر، وأمي، وأخيراً أختي فاطمة، التي فقدتها وهي ما تزال حية، لكنه أشد خبثاً.. نعم، فهو مجرد إشارة فقط لمرض آخر.

قد أسأل الطبيب في هذا الشأن، وقد لا أسأله، وقد أسأله إن عادت الهلوسة مرة أخرى، واتضح لي أنها هلوسة، كأن تبزغ ميمونة العشرينية، فجأة في زي ممرضة حسناء، راقية لتحقنني بسائل في الوريد، كأن أشاهد غريمتي: ست النساء راقدة في سكون على محفة ممزقة، ويقولون: ماتت فجأة، وكأن يعود أخي صابر من رحلته البعيدة الأبدية، ممسكاً بكرة القماش الصفراء المتهتكة، يلقيها إليَّ وهو يردد: أمسكها.. أمسكها يا جمعة.

كانت كرة صابر التي صنعها بنفسه، رخوة، ولطيفة، وسهلة الإمساك، والآن كرات العالم التي يلقيها في وجوه اللاعبين المساكين، كلها ألم، وعنف ودم.

-٧-

كانت الأعراس في ذلك الوقت، أي وقت أن قررت الارتباط بليز، موناليزا البلهاء سابقاً، في غاية الصعوبة، والسهولة معاً.

صعوبتها في عدم وجود وسائل كثيرة متاحة لتفعيل الحواس اللاقطة، وانتشال فتاة الأحلام الجاذبة، من وسط النساء المتسترات في البيوت، أو الماشيات في الطرق بأقل قدر من الفتنة ولفت النظر، ولا يوجد كثيرون مثل جعفر حماد القديم، يملكون رؤيا خطرة وسافرة، وغير مبالية بأسئلة المجتمع، وقبضات أيديه القوية، وأحياناً سيوفه التي تحز الحرية، من عنقها.

كان الاعتماد في ذلك الشأن العاطفي الخاص، على المصادفات أو على الأمهات والأخوات، في البحث عن الشريكة التي يرونها مناسبة، وقد تكون بعيدة تماماً عن أي هوى، وقد تكون مجنونة، وقد تكون ليست امرأة على الإطلاق، وإنما حائط من الحجر الصلد، فيه بعض النتوءات. وكان واحد من عمال ورشتي، من أصل حضرمي، واسمه با حفظ الله، ويسكن في الحي الذي أسكنه، قد تزوج بطريقة البحث العائلي تلك، وجاءت أمه بفتاة قالت عنها: لو كنا نملك ذهب الدنيا كله، لدفعناه مهراً لها، وليكتشف با حفظ الله، بعد أن تم العرس، أنه تزوج بكارثة. كانت العروس تتعاطى السحر، وأيقظته في آخر الليل الأول لهما معاً، لتريه صفّاً من زعماء الشعوب والقادة الموتى، بمن فيهم هتلر وموسوليني، وبونابرت، يتمشون في غرفة نومه.

بالمقابل كانت السهولة تكمن في سرعة إنجاز العرس بلا منغصات ولا تكاليف مزعجة، إن حدث والتمَّ الرجل على امرأة سيتزوجها. كان المهر بسيطاً جداً، ربما حبات من التمر، وبرطمان من العسل، أو عدة قروش فضية، أو مجرد وجه بشوش يستخدمه العريس، في وجود أهل عروسه. ولا مانع بالطبع، إن أراد أحد ما أن يتزوج بشيء من التعقيد، ويسرف في ليلة أو ليلتين، هنا ليس ثمة لوم، ولكن ابتهاجاً كبيراً، ومفخرة بين الناس، وهذا ما أردت أن أفعله، أن أتزوج بنت الرسام غير الموهوب، التي نشأت مثلي في حي شعبي، بطريقة لن تنساها ولن أنساها، ولن ينساها من حضر.

كان ولدانو أيوب ساتر، الذي أعرف تاريخه جيداً، من كينيا في الأصل، وقد استوطن البلاد صغيراً حين قدمت أسرته هرباً من ساحر شبق، أراد الأم قسراً، وابتدأ يحاصرها بالتمائم، ويريها وجهه، وكمالياته الجسدية، في أي نشاط تمارسه، حتى حين تمشط شعرها، أو توقد ناراً للطبخ.. كما روى من عاصروا دخول الأسرة إلى البلاد.

كان والده نجَّاراً متمرساً، وساهم أثناء حياته، في صناعة سفينة للركاب تخص الحكومة، اسمها: السفينة الأم، وسفينة أخرى أصغر حجماً، اسمها السفينة الأخت، وعدة قوارب خشبية، يستخدمها المتنزهون في النهر، وقيل هو من ابتكر لافتات الخشب القوية، التي تعلق عليها الإعلانات في الشوارع،

إلى اليوم، وصنع الأبواب الخشبية الضخمة التي تنتشر في كل الوزارات الحكومية حتى الآن، بما فيها وزارتي، وتمنع دخول الناس إلى حيث يعرضون حاجاتهم على المسؤولين، بالرغم من أن ولدانو نفى مسألة الأبواب هذه، وأقسم أن والده كان رجلاً خيراً، لا يمكنه أن يضع العوائق أمام البشر، وباستثناء أنه صرخ مرة في وجه أحد القساوسة، أثناء خطبة دينية في العراء، قائلاً: اخرص، لم يرتكب منكراً قط.

- أليس مسلماً؟ ما الذي ذهب به إلى خطبة قسيس؟

كان الناس يسألونه حين يتحدث عن تلك الواقعة، ويرد بنفس كلماته التي ما تغيرت أبداً:

- لا أعرف عقيدته صدقاً، فقد شاهدته مسلماً مرات، ومسيحياً مرات.. ولا دينياً مرات أيضاً..

كان ولدانو في السابعة والأربعين، وقد افتتح أول نشاط لإحياء الأفراح، في البلاد، ولم يكن أحد يعرف ذلك من قبل.

كان قبل ذلك عاملاً عند تاجر طلياني، رحل عن البلاد فجأة، وخصص له شيئاً من المال. كان يملك عربة من ماركة همبر الإنجليزية، ومستعداً لزركشتها، وكسائها بالورد، وقيادتها في حفلات الزفاف، وكان يملك مخزناً فيه حلقات ملونة من الحديد والمطاط، يمكن تعليقها في الساحات، وفوانيس قوية الضوء، يمكن تعبئتها بالجاز، ورصها، إن كانت الأعراس ليلاً، وفي أماكن

لم تصلها الكهرباء الشحيحة، بعد. وقد كان زبائنه قلة، وغالباً من أبناء التجار، وموظفي الدولة الذين حصلوا على وظائف عليا مباشرة بعد خروج المستعمر، وربما بعض المتسلقين، واللصوص الذين يُوجَدون في كل زمان ومكان.

كنت أعرف الكيني ولدانو ساتر جيداً، أعرفه من أيام عملي في ورشة جاد الرب، حين كان أقام صداقة غريبة، ومدهشة، ولا يمكن استيعابها، مع ثعلب مربوط في حوش بيت ملاصق للورشة، سماه: المحترم، وكان يغشاه بصورة يومية، يتحدث إليه، ويفسر زمجرته الصاخبة، حين يقترب منه في حذر، بأنها تحية ترحيب به، وزمجرته التي يرفع فيها قائمتيه الأماميتين، ويخفضهما، بأنها أغنية حب يرددها في تذكر محبوبته القديمة، التي عاشت معه في الغابة قبل اختطافه. وحين يلقي إليه ببعض اللحم، ويزمجر الثعلب مع إفراز غزير من فمه، يقول ولدانو: إنه يشكرني.. إنه يدعوني لمشاركته طعامه. ما ألطف هذا المخلوق؟ ثم ينكفئ على الأرض، متمتماً بكلام غير مفهوم.

كنتُ، ومعي كل من عرف بطقس صداقة آدمي بثعلب، وشاهد الطقس حيّاً، بمن فينا صاحب الثعلب نفسه، وكان صياداً معروفاً، وقد أحضر الثعلب مجنزراً ومكمم الفم، من رحلة صيد في إحدى الغابات البعيدة، نظن ولدانو ساتر مجنوناً، وبدا بعض المتطفلين المغرمين بمفردات الأذى، يراقبونه، ويمعنون في مراقبته، بحثاً عن خلة معتوهة أخرى، مثل نتف الشعر، وزوغان

العينين، وتحويل العورة المستترة، تحت الثياب، إلى فضيحة، ويمكن إضافتها لسلوكه مع الثعلب، ومن ثم إصدار فتوى تسمح بردمه بالحجارة، ومطاردته في الشوارع، أسوة بجميع المجانين في البلاد، ولم يحصلوا على أي شيء. كان باستثناء تلك الساعة التي يقضيها وفيّاً للثعلب، وخادماً مطيعاً بلا معنى، شخصاً عادياً جداً، وربما أكثر من العادي أيضاً، يعمل بائعاً صبوراً عند الطلياني، وفي آخر النهار، ينجرُّ إلى جحر من جحور المدينة العشوائية، كثيرة الجحور، لينام، أو يحلم، أو يتقلب في نار الأرق، وقد سألته مرة بعد أن ترددتُ كثيراً:

– قل لي يا ولدانو، هل كل الكينيين يتحدثون مع الثعالب هكذا، أم أنت فقط؟

– كل الكينيين؟

أجاب بغضب.

– هل كل أهل بلادكم يعملون حدادين مثل جاد الرب ومثلك؟ الأمر قضاء وقدر أيها الولد الحداد، ولتعلم أنني أتحدث مع الطيور، ومع الحشرات أيضاً، وهناك عقرب تقيم هنا في ورشتكم، أخبرتني بأنها ستلدغك.

ضحك، وأمسك رأسي، هزَّه بنعومة، أضاف:

– لكني قتلتها..

وحين مات الثعلب، من جراء هجوم عصابة من الكلاب استخفت به، مستغلة أنه مربوط ولا حول له ولا قوة، في إحدى الليالي، جاء ولدانو ساتر متجهماً وأسود الثياب، ودامعاً، وبكى أمام الوتد الذي كان مربوطاً إليه، وبجوار بقعة الدم المتبقية من صديقه، وقال:

- لن أمسح دموعي حتى أعثر على الكلاب التي قتلت صديقي المحترم، ويتّمت صداقتي.

لكن شيئاً من ذلك لم يحدث قط، مضت الحياة التي لا يموت فيها الثعلب فقط، ولكن كل أرواح الأرض، انتهت سيرة الثعلب الصديق، وانتهت سير مئات الآلاف من البشر، عمروا ذات يوم، ومضوا في النهاية، كان ولدانو في تلك الفترة، قد اكتسب عقلاً جديداً، وصوتاً جديداً، ومالاً جيداً، وأنشأ نشاط إحياء الأعراس المترفة، الذي سأغرق فيه بمحبة كبيرة، في الواقع بمحبة لا يمكن قياسها، لأن ليز البلهاء- حبيبتي، كانت منبع الحب ومصبّه.

-٨-

كان الطبيب الذي استُدعي لإسعافي، ومعرفة أسباب احتباس التبوُّل فجأة عندي، هكذا بلا مقدمات، وفي يوم كدتُ أحتفل فيه بتذوُّق جديد للمرأة، جاء حتى قلبي ولم يبحث القلب عنه هنا أو هناك، هو الدكتور "ستالين عبد الباقي، جرّاح الكلى والمسالك البولية، الذي كان والده من أقطاب الشيوعيين، وأكثرهم شراسة في تذوق الفكرة الماركسية، ومحاولة تعميمها على الأرض كلها، وأيضاً في مطاردة الحكومات المتعاقبة منذ الاستقلال، بأفحش الصفات ورسمها في أذهان الشعب، حكومات ضالة، وفاسدة وداعرة سياسياً، وضد طموحات الطبقة العاملة، وكان أن اعتقل كثيراً، وعاش في أقبية تحت الأرض، وغُرفٍ معتمة بلا ضوء ولا أوكسجين، واستخدمت سيرته الذاتية، من قبل الحركات اليسارية، كنموذج للسير، التي ينبغي أن يتلبّسها المناضلون كلهم، حتى يُسموا مناضلين. وكنت أعرف عدداً من الغوغاء تلك الأيام، سمّوا أنفسهم: جنود عبد الباقي، واستخدموا كلماته التي يرددها دائماً، بطريقة مضحكة، فيقولون للتاجر الجشع: أيها الداعر سياسياً، ولرجل الشرطة الذي يحمل عصاً وسلاحاً: أيها الشبحي، وهذه كلمة لم يستخدمها عبد الباقي قط، لكنها أضيفت لقاموسه، بلا أي وجه حق، بعد أن مات.

كان الدكتور ستالين هو ولده الوحيد، سمَّاه كما هو واضح على الزعيم الروسي: جوزيف ستالين، الذي يعتبرونه عظيماً جداً،

ونعتبره نحن ديكتاتوراً عادياً، لا يختلف كثيراً عن رئيس حكومتنا الذي نتابعه في كل صغيرة، وكبيرة، يتجشّأ بها، ويتابعه الشعب كله راضياً أو مرغماً، ورؤساء آخرين، لهم الصفات نفسها، فقط تأتي مسألة التحضُّر، هناك يدفنون الثورات، ويطحنون مشعليها بتحضُّر، وهنا ندفن ونطحن، بوسائلنا المتاحة، البعيدة تماماً عن التحضُّر. وأذكر في بداية استلامي لحقيبة الثقافة، أن قدموا لي أستاذاً روسياً، زائراً للجامعة هنا، وأراد التعرف إلى الوزير المختص بالثقافة. كان اسمه: العدمي أناتولي أندرية، وبجيد العربية، حتى لكأن مطبخها الرئيسي، في حلقه. لقد لفت انتباهي اسمه، وسألته مباشرة بعشوائية الحدادين التي كانت ما تزال عالقة بي وأنا جديد على الوزارة، وعلى السياسة كلها: لماذا اسمك العدمي؟ ومن أين جاء الاسم؟ وهل تعرف معناه؟

ردَّ بهدوء: نعم معالي الوزير، العدمي هو القابل للفناء، أو الفاني فعلاً، وأنا قابل للفناء كثيراً. اسمي أناتولي أندرية، وسمّيت نفسي العدمي بعد أن أنهيتُ شهادة الدكتوراة في موضوع يخصكم؟

- يخصنا؟

- لا أقصد معاليكم بصفة شخصية، ولكن عالمكم المضطرب عموماً: كان عنوان رسالتي: القتل بخناجر عشوائية. العالم الثالث نموذجاً.

وقد كانت تلك المقابلة مع العدمي، وما دار فيها من حديث بعد ذلك، من أولى الإشارات التي تلقيتها عن خطورة أن تصبح مسؤولاً في العالم الثالث ، وبالرغم من ذلك، لم يخطر ببالي قط، أن أعتذر عن لهب الكرسي، وأعود لورشة راضي للحدادة، التي كان نشاطها جيداً، وقد اتسع في السنوات الأخيرة، ليشمل صناعة أراجيح الحديد للأطفال، ومقاعد الحدائق لبيوت الأثرياء، وبات عمالنا من الذين يمكن أن يفروا إلى دول الخليج العربي، التي ظهرت بوادر الفرار إليها تلك الأيام، في أي لحظة.

كان من الواضح أن الدكتور "ستالين" سعيد باسمه للغاية، وفخور به جداً، وكان يمكن أن يغيره إلى أحمد، أو سلطان، أو عبد الله، أو القرشي، أو حتى ساكن الخرائب، أو ثور المحراث، بعد أن كبر وتعلم، وبعد أن زال الحرج، بموت والده المتطرف، من مرض الحمى القرمزية، في سجن معتم، من سجون الموتى الأحياء، كما تسميه الأجهزة الأمنية، منذ ستة عشر عاماً، وعرف الناس كلهم بذلك. وقيل في ذلك الوقت أن السلطة نفسها هي من سرَّب الحكاية، مع تعريف شامل لمرض الحمى القرمزية: أسبابه، وأعراضه، ومضاعفاته، وصعوبة علاجه، والوقاية منه، حتى ينشغل الناس بالهلوسة به، ناسين أن ثمة مناضلاً مات.

ستالين نفسه، كان يسارياً متطرفاً، ولولا أنه انشغل بدراسة الطب، كما أعتقد، لكان أنشأ فكراً متطوراً من الماركسية، وحصد له الأتباع، وأزعج به الحكومات، وكنت رأيته شخصياً،

يهتف في أكثر من مظاهرة حاشدة، تندد بالوضع الاقتصادي في البلاد، وتنادي بإسقاط السلطة، كان ذلك منذ أكثر من خمسة عشر عاماً، حين كان الدكتور، طالباً في الجامعة ما يزال، وكنت حداداً متمرساً في إدارة ورشتي فقط، بلا أفق سياسي، ولا أدنى فكرة، أنني قد أصبح وزيراً في أحد الأيام، وبالطبع عدواً مفترضاً لطبيب المسالك، وغيره من اليساريين، بطريقة أو بأخرى.

ذلك اليوم، كنت موجوداً في قلب المظاهرة، بالمصادفة البحتة، أمسكتُ الطالب المتشنج من ياقة قميصه، ساهمت في رفعه إلى أعلى مستوى في التظاهر الحاشد بحيث تتقطع أزرار قميصه، كأنه خاض معركة، ويخرج صوته كاملاً بلا غطاء: تسقط السلطة.. يحيا الشعب.

فعلت ذلك كما أذكر، ولا أدري لمَ فعلته؟ ولعله كان تسلية بلا هدف، أو لعله عدم الوعي الكافي، الذي يُصيِّر مَنْ يساند متهوراً، مثله في التهور، وشبيهاً به في عين السلطة، التي قد تفعل أدوات خنقها في حقه فوراً، وهذا ما حدث بالفعل، حين وجدت نفسي محاصراً فجأة، بمفردات الأذى كلها، وأفلتُّ بمعجزة لأعود إلى بيتي ولا أغادره إلا بعد أن هدأت الشوارع، مات من مات، ورقد في السجن من رقد، وعاد إلى شأنه من عاد إلى شأنه.

الدكتور ستالين لم يتذكرني، ولا أظنه تذكر يداً واحدة من تلك الأيدي التي امتدت بهمة، أو تعب، مزقت قميصه، رشت صدره بحبر أحمر، ورفعته عالياً في تلك المظاهرة الحاشدة. كان

وجهي عادياً مثل أي وجه، واسمي عادياً مثل أي اسم آخر، وبالنسبة له كان الأمر سيكون عادياً أيضاً وأنسى وجهه، وأنني كنت قريباً من وجهه، في وقت ما، لولا أنهم ردَّدوا اسمه كثيراً، بعد أن دخلت المستشفى، وبالطبع أو من شبه المستحيل، أن تجد شخصاً آخر باسم ستالين، والحقيقة حتى شخصاً واحداً فقط في البلاد كلها، لولا أن الدكتور ستالين عبد الباقي، كان اسمه ستالين.

- هل تذكرتني؟

كنتُ أسأله، وأراقب يديه تعملان بخفة، وبلا أي رعشة أو تردد، لتحشُرا أنبوباً مطاطياً غليظاً بعض الشيء، في مجرى البول، وأشعر براحة عظيمة، والسائل الملعون الأصفر، يتدفق خارجاً، ليستقرَّ في كيس من البلاستيك السميك، موصل بالأنبوب.

أسأله بعد أن تنفست عميقاً، وكتمت آهة ارتياح مستلذة، كادت أن تفر من حلقي، أسأله، وأعلم أنه لن يتذكرني قط، من صفتي الإنسانية، ولكن قد يتذكر صفتي الرسمية، والوزراء في أي زمان ومكان، تملأ صورهم الصحف، والشوارع، ويشبهون إعلانات المياه الغازية أكثر من أي شيء آخر، لكن الدكتور ستالين كان ماكراً جداً، ولعيناً جداً، وأشبه بالذي يقسم على غياب الشمس، في وجودها الكامل، إن صح التعبير. قال:

- لا .. لم أتذكرك.

كان مكرُهُ غير منطقي، وهناك مكر فيه رائحة منطق، ذلك أن الممرضة التي ركضت، في الممرات، كانت تردد صفتي، والمدير الإداري لجناح كبار المرضى، الذي أسرع أيضاً، ردد الصفة، والطبيب الصغير الذي ارتبك، وخرج من الغرفة وعاد برفقة الدكتور ستالين، من المؤكد أخبره بوجود وزير الثقافة، محتقن المثانة في عيادته.

هتفت ليز من خلف ستارة الفحص، وأحس بأنها غاضبة أو متوترة، أو خائفة، أو تهيّجت غدتها الدرقية المتهيّجة أصلاً، أو تعاني من واحدة من نوبات صداع الشقيقة، الذي يفاجئها في وقت الأزمات، وحتى في وقت الفرح العميق:

- ألا تعرف الأستاذ جمعة راضي، وزير الثقافة؟

ردَّ الدكتور فوراً، كأنما كان الرد عالقاً في المسافة بين حلقه والفراغ، ولم يبد مندهشاً، أو يحس بأسف حقيقي:

- المعذرة، لا أفهم في الثقافة، ولا أتابعها.

كان رداً واضحاً ورتيباً، ويستخدم كثيراً، ومن مختلف طبقات المجتمع، ولو لم أكن وزيراً للثقافة لاستخدمته أيضاً، في الأوقات التي ربما يربكني فيها أحد بمسألة ثقافية، أو يسألني عن كتاب، لا أعرف عنه شيئاً، أو يضعني في لجنة تسعى لتكريم شخصية لم أسمع بها، ولا بجهودها ومنجزها، قط، وقد ذكرت قاعة الراحل أحمد الموجودة في مبنى وزارتي، والتي ما تزال لغزاً عندي، لم أصل

لحله، ولو كنت أملك ما يملكه الدكتور من حرية كبرى في اختيار ما يريد وما لا يريد، لشتمت الراحل، ومحوته من ذهني تماماً.

الآن، ومع استرخاء المثانة شيئاً فشيئاً، وإسراع السائل الأصفر الداكن، في الفرار عبر الأنبوب الرائع، عادت الفتاة العشرينية، ميمونة الجميلة، لتلامس خيالي، وتصافحه مرة أخرى، لتقول بذات الصوت الحريري، وأكاد أسمع صوتها يتردد: أنت فتى أحلامي الأول معالي الوزير.

الطبيب، طرد الطيف، بلا قصد منه طبعاً، حين قال: غدة البروستات متضخمة بشدة عند معاليك، بسبب تقدم العمر، وستحتاج لعملية إزالة لها في أقرب وقت. ستبقى معنا يومين أو ربما ثلاثة، أو أكثر، وهذه القسطرة ستبقى في جسمك عدة أيام أخرى، ثم نزيلها، ونبدأ إجراءات العملية. أظن أن كلامي واضح، معالي الوزير.

قال معالي الوزير، بعد أن لم تعد ثمة حجة لعدم قولها، وأحسست بالرثاء له، ولكل معارضي السلطات الذين يُصابون بضربات الشمس، في بلد استوائي، أو بسياط رجال الأمن، وهم يصرخون بسقوطنا في الشوارع، والذين ينفقون حياتهم في سجون لا تميزهم، ولا تكرمهم، ويموتون فيها، مثلما حدث لوالد الدكتور.

ليز سمعت ما قاله، وخافت، ولم تكن تفكر قط أن اسم غدة البروستات الكبير، المجرم في نظرها، سيتردّد في حضورها، ويخص

رجلاً تعيش معه زمناً طويلاً. كان الاسم سيكون عادياً لو أن ليز تسمعه لأول مرة، لكن مع الأسف، سمعت به من قبل، حين تضخمت بروستات زوج أختها الكبرى، موناليزا الحرباء، مونا، ومات بنزيف حاد، في أثناء الجراحة. كان الزوج تاجرَ أخشاب ناجحاً، وفي ثوان فقط، تحول إلى لا أحد.

- ربي .. إلهي.. رحمتك ربي.

كانت تغمغم منزعجة، وأخالها بسوء نية خطر لي فجأة، تفكر في الوزير الميت، وستسعى لتغذية ابنها المتبنى، أيهم جمعة، بتعليمات مستقبلية، حتى يبدو مناسباً ليكون ابن وزير ميت.

- لا تقلقي سيدتي.

قال الطبيب.

- لا تقلقي ليز.

قلتُ وأنا أشد قلقاً منها. إنه واحد من مواقف التدهور التي تمنيت أن لا أتدهور بها يوماً. أن تكون كبيراً ولامعاً، ومتمكناً في الجاه والحياة الرغدة، لدرجة أن تغازلك فتاة في العشرين، وتحلم بوصالها، ثم في اليوم نفسه، تترنح داخلك العلل، كأنها كانت تنتظر ضحكاتك، لتبتلعها، لو كنت خُيِّرتُ، لاخترت أن أصمت فجأة بلا علة، ولا تفكير بشع مثل هذا الذي أفكر به الآن،

ويدخل في لحم الخيانة.. نعم كانت الزوجة الجيدة حيناً، والمزعجة أحياناً، لكنها المخلصة دائماً في الشأن الزوجي، موجودة، ويجرؤ خيالي على التفكير بغيرها، يتمادى الخيال ليرسم صورة الأخرى اليانعة، ويكون مبتذلاً فعلاً ويقارن بين الاثنتين، خيالي طبعاً.

قلتُ: أف، وأقصد أف من خيالي ومرضه، وحسبتني ليز العالقة، لصيقة بي في سريري الآن بعد أن ذهب الطبيب، أتأفف من مرض البروستات:

غمغمت: أنت بخير يا جمعة.

-٩-

تزوجنا، أنا وليز إذن.

تزوجنا حقيقة، وبطقوس الأعراس الغالية التي كان يوفرها ولدانو أيوب ساتر.

كان المهر متميزاً جداً، كما قال الرسام جعفر القديم، وقد تلقى من قبل مهر موناليزا الكبرى- الحرباء، من رجل كان يعمل عند تاجر أخشاب، قبل أن يصبح تاجر أخشاب فيما بعد. وكنت أعمل عند حداد، وأصبحت صاحب ورشة للحدادة فيما بعد. الفرق هنا، هو أن تاجر الأخشاب، تزوج وهو ما يزال بسيطاً، ونكرة، ومجرد أجير، وأنا تزوجت حين أصبح باستطاعتي أن أغفو على شيء من الثروة، وأوظف البسطاء، بكل رعونة.

جعفر القديم كان سعيداً، وأوشك أن يرسم لوحة بهذه المناسبة، يسميها: "عرس مزخرف"، ويلونها بما سيحصل عليه من ألوان، لولا أنني شغلته في أشياء أخرى، إمعاناً في طرد فكرة الرسم من باله. حيث دفعتُ مالاً، وطلبتُ منه ترميم بيته، وإقامة حوائط من الطوب بدلاً عن ذلك الطين المرتبك أمام المطر، أيضاً اشتريت له حمارين جيدين، بلونين مختلفين، ليستخدمهما بحسب المزاج، وحقلاً متوسط المساحة، في مزارع العلف القريبة من حي دومة، حتى لا يبحث عن العلف اللازم لدوابه بعيداً، وفي ليلة العرس، ركبنا أنا وليز، في عربة ولدانو المزركشة بالورد، أنا

بثوبي الأبيض وعمامتي الغالية، وهي بثوب كله ورد وفتنة، وطفنا بالمدينة، لم نترك فيها شبراً إلا ضحكنا فيه، وتغزلنا ببعضنا فيه، وولدانو يقود العربة، ولم يبدُ مهتماً بالتفاصيل الصغيرة، لعاشقين في ليلة العمر، بقدر اهتمامه بأداء وظيفته كاملة. كان متزوجاً منذ زمن صداقته بالثعلب الراحل، وشاهدته مرة يحضر طفلين معه، لزيارة الصديق، ولم تكن زيارة ناجحة كما يبدو، حيث صرخ الطفلان رعباً، وفرّا من المكان، وصرخ الثعلب أيضاً، وقال ولدانو في ذلك اليوم، إن المحترم متأثر جداً بفزع الطفلين عند رؤيته، ويعتذر بشدة.

كان الكيني وهو يقود عربة الزفاف، يُردِّد بين حين وآخر: ليس كل ما يلمع ذهباً.

يرددها أحياناً بشرود حقيقي، وعيناه هائمتان في الطريق، وأحياناً بعمق مزعج، لدرجة أحس معها أن الجملة قد توجعت وسال منها الدم.

ليس كل ما يلمع ذهباً، وهذا حقيقي، الذهب يلمع، والنحاس يلمع، والحديد في ورشتي والورش كلها، يلمع، وليز تلبس زينة من الذهب والقصدير على عنقها اللطيف، ويديها الرقيقتين، وكل ذلك يلمع.

لكن ما علاقة الجملة بي أو بعروسي الجميلة، أو بطقس العرس الذي كنا منغرسين فيه؟

– ما علاقتنا بهذه الجملة المملة يا ولدانو؟

أصرخ متكدراً.

– ليست لكما علاقة، أقسم لك..

يأتيني صوته هادئاً:

– إنها جملتي.. ومن حقي أن أرددها باستمرار، وفي أي وقت، ما دامت ليست عصاً، أو سكيناً، أو طلقة سلاح ناري، أو بذاءة. هل تأذيتِ من جملتي يا مدام؟

كان يسأل ليز، والآن أفلت الطريق لحظة، والتفت بكل جسده ناحيتنا.. وأضاء نور الوسط في العربة.. كانت عيناه جمرتين، أنفه فيه إفراز طفيف، ولا شيء آخر.

– أبداً أبداً.

رددت ليز وأخالها أخطأت، أو رددت.. نعم .. نعم.. وانقلب الرد إلى أبداً.. أبداً.. كان وجهها قد اصفرَّ قليلاً، كانت منزعجة بالفعل.

انتهينا أخيراً، تدحرج بنا ولدانو بعربته المزينة، إلى فندق زينوف، أحد الفنادق الجديدة في وسط العاصمة، حيث أنشِئ عام 1948، وكان يملكه إنجليزي من أصل عربي، اسمه زين، أو زيان، لا أذكر بالتحديد.. كان فندقاً صغيراً، مكوناً من طابق واحد فقط، وقد توزعت فيه الغرف، بشكل عشوائي، بحيث

يمكن أن تعثر على الغرفة رقم 4، بجانب الغرفة رقم 40 والغرفة الأولى، بجانب الأخيرة، وهكذا، وقد عمل فيه منذ إنشائه، موظفون وعمال، كلهم من إثيوبيا، ولا يدري أحد، لماذا إثيوبيا فقط؟

لم يكن هذا الفندق أو غيره، من ضمن المخططات، في طقس زواجي، والحقيقة أنني قررت وبموافقة ليز، أن نذهب من ساحة الحفل، وبعد جولة ولدانو في العاصمة، إلى البيت الذي أعددته لنا، لنقيم فيه، وكان هو بيتي نفسه، بيت أبي الذي تركه في حي: حفرة، وسعيت لترميمه، وجعله متكأ جيداً لعروسين، ولم يكن سيئاً أبداً، على العكس، كان رحباً إلى حد ما، ونظيفاً، فيه غرفتان جيدتا الإضاءة والتهوية، ومؤسستان بأسرة الخشب، وخزائن من الحديد منتجة في ورشتي، وله حوش يسع أكثر من خمسين سريراً من أسرة الخشب، وقد حصلت على وعد من مصلحة الكهرباء، أن تزودني بالتيار الكهربائي في أقرب خطة قادمة، نغلق بيتنا على أشواقنا، ونمارس شهر العسل بعادية مطلقة. وكنت كلفت آمنة أو أمونة، كما تلقب، وكانت امرأة مثابرة من جيراننا، ومن صديقات أمي الراحلة، أن تطبخ لنا وجباتنا اليومية كلها، حتى أخبرها أن تكف، أي حين تكون العروس مؤهلة، لتصبح ربة بيت.

لكن ولدانو أيوب ساتر، توقف بقصدية شديدة أمام فندق زينوف، وجاء حمال الفندق راكضاً، يبحث عن حقيبة يحملها، ولم تكن ثمة حقيبة.

عند ذلك صحتُ، وكنتُ متوتراً جداً:

من قال لك إننا سنبيت في هذا الفندق يا أخ؟

التفت ولدانو ناحيتنا للمرة الثانية، وكانت عيناه ما تزالان جمرتين، تنفُّسُه بدا سريعاً، ومزعجاً، وثمة عرق طفيف منعقد عند جبهته. كان مريضاً، أو تحت تأثير كحول قوي، أو هكذا خُيل لي.

– لم يقل لي أحد ذلك أيها الحداد، هذه هديتي المتواضعة لعروسكم الطيبة، ولشخصكم الكريم. ستمكثان هنا ليلتين.. وبعدها يمكنكما الذهاب حتى إلى الغابات الاستوائية، أو مملكة إبليس، إن أردتما. وبالمناسبة.. توجد ملابس في الغرفة، يوجد رغيف محمص، وزيتون أخضر، وكثير من المحبة.

أظن أن ليز بكت بسرية، في تلك اللحظة، لأنني أحسست بحرارة نظراتها، تلك الحرارة التي تشعلها الدموع، أظنني أوشكت أن أبكي أيضاً، ولا أذكر أبداً أنني أديت معروفاً لهذا الرجل غريب الأطوار، حتى في كرمه. لم نكن حقيقة بحاجة لغرفة في فندق متواضع، في بلد بلا رفاهية، ولكنها المحبة، المحبة فقط، هي ما نحتاجها ويحتاجها الكل في أي وقت.

لقد بدا لي أن الثعلب، الذي كان مربوطاً في الحوش، كان بحاجة وهو سجين إلى المحبة، ووجدها عند ولدانو بالرغم من غرابتها وعدم تناغمها مع أي منطق. ولدانو نفسه كان بحاجة للمحبة. ومؤكد يجد انعكاسها حين يلقيها على الناس.

ابتهجنا جداً، وكان الفندق رائعاً، برغم تواضعه الشديد، وكمية الصخب الذي يحركه عدد من شباب تلك الأيام، من المولعين بموسيقى الانبعاث المجنونة، المستوردة من أوروبا، والتي يلعب فيها الجسد كله، آلة إيقاع كبيرة، بما في ذلك الأعضاء الحيوية المخبأة. كنا نسمع الخبط على الجسد، نسمع تداعيات النشوة المستخلصة، ونتابع دفئنا الشخصي الذي يحدث بسرعة وبمجرد أن تلمس اليد، اليد، أو يسقط فم على فم، وسرة على سرة، وبعد انتهاء ضيافة ولدانو، أي يوميه الصاخبين، الناعمين، اللطيفين، انطلقنا إلى حي حفرة، لنبدأ حياتنا الجديدة كاملة.

لم ألتقِ ولدانو أيوب ساتر بعد ذلك إلا مرات قليلة، وللحظات خاطفة، لا تسمح بتبادل أي ذكريات نظيفة كانت، أو متسخة، ولا حتى التقاط تغير ربما حدث عندي أو عنده.. كنت أسمع بنشاطه المضطرب، الذي بدأ يتقلص في الستينيات، بعد أن ضربت أزمات متتابعة اقتصاد الوطن، والعالم كله، واندلعت حروب متجهمة هنا وهناك. إضافة إلى أن العربة الهمبر الرمادية توعكت، ولم تكن ثمة وسيلة لإصلاحها أو استبدالها بواحدة من العربات الحديثة، التي غزت البلاد مؤخراً، وظهرت تلك اللافتة الأنيقة التي تحمل اسم: حفلات دوشة، في بداية السبعينيات، وتبعتها لافتات أخرى أكثر أناقة، لمنظمي احتفالات آخرين، ليقضي كل ذلك، على مشروع ولدانو الرائد، الذي أبت الظروف أن تحوله إلى صرح. وبنهاية عام 1972

كان ولدانو قد شاخ بفعل القلق والاكتئاب، وأصبح من العسير عليه أن يستمر حتى مجرد إنسان عادي. قيل أنه نسي أشياء كثيرة، ومهمة جداً في حياته، منها أنه كان من كينيا في الأصل، وجاءت أسرته فراراً من ساحر شبق أراد الأم قسراً، وطاردها بالتمائم، وأنه كان صديقاً لثعلب، سماه المحترم، وبكاه حين مزقته الكلاب، وأنه قاد عربة الزفة في عرس الطيب خليل، تاجر اللوازم النسائية الأشهر، وكان يفخر بذلك دائماً، وأن له امرأة اسمها شوبانة ليست كينية الأصل، ولكن من صميم أهل البلاد، وأن له ثلاثة أبناء أكبرهم في الثلاثين وأصغرهم في العاشرة، قيل: تخلص ولدانو من ورم الأشياء كلها، الأشياء التي تخصه والتي تخص غيره، والتي كان يمكن أن تكون على ظهره ذات يوم، وبدا مستعداً ليذهب في أي وقت.

-١٠-

صباح اليوم التالي لاحتقان مثانتي، وحين مرَّ الدكتور ستالين عبد الباقي، على غرفتي، وتفقد أنبوب التبول وملحقاته، وتأكد من سلامة التحاليل الطبية المثبتة على ملفي، الذي فتح حديثاً، ولم أكن أملك ملفاً من قبل، سألته أولاً، ولا أخفي انتعاشي من بعد ليلةٍ مريحةٍ قضيتها، والقسطرة في مجرى تبولي:

- من الذي اخترع هذا الأنبوب العظيم؟

- القسطرة؟

ردَّ بلا تردد:

- لا أعرف حقيقة، فلم يخبرنا أحد بذلك. في الجامعة يدرسونك النتائج فقط، ويغفلون عن الأسباب في معظم الأحيان.. يقولون: اكتشف كريستوفر كولمبس أمريكا، ولا يقولون، لماذا كان أصلاً يبحث عن أمريكا؟ يقولون هبط السوفييتي جاجارين على سطح القمر، ولا يقولون ماذا كان يتوقع أن يجد على سطح القمر؟ أنت جامعي وتعرف ذلك جيداً معاليك.

أنا لست جامعياً بالطبع، وكنت أتمنى لو كنت جامعياً، ولو امتلكت شفافية ما، ولو ضئيلة لأقول لذلك اليساري البارع في عمله، حد الكمال، أنني حداد، تدرج أولاً في بؤر الحياة الوعرة، ثم تعلم ما يجعله مقبولاً لدى المتعلمين، أنا وزير الثقافة، ولست مثقفاً جداً، لكن أستطيع ادعاء امتلاك شيء من المعرفة،

شيء مقبول، لن يشك معه أي محاور بأنني أحمل حتى شهادة الدكتوراة.. لقد قرأت عن الماركسية كثيراً، ويمكنني أن أجعل الدكتور يعرق، أو يحتد، إن أمسكت بجزء بسيط منها، وبدأت أحلله أمامه، ولكن لن أفعل، والمكان مكان مرض وشفاء، مرض واحتمال شفاء، والدكتور ستالين لديه أعباء كثيرة غيري، ولعله أكرمني بوقت إضافي كوني من كبار الشخصيات.

غمغمت:

– نعم .. نعم.. بالطبع جامعي، ومثلك أعرف النتائج أكثر من الأسباب. درست الفن وتزوجت من ابنة رسام.

– أنت فنان إذن؟ درست الفن أعني.

السؤال الذي سألتني إياه ليز في ورشتي منذ أكثر من عشرين عاماً، وأدى إلى ارتباطي بها، يتردَّد الآن مرة أخرى، ولكن المسألة مختلفة. في ذلك الوقت كان الأمر عن رسم ابتسامتها المشوهة بسبب ريشة والدها غير المؤهلة، واليوم، مجرد استفسار من طبيب لم يكن يتحدى أحداً، ولا أظنه يرغب في تحدي أحد. كانت ثغرة كبيرة ولو كان الطبيب يملك ثقافة حقيقية، وليست حزبية ضيقة، أو محدودة بفعل دراسة الطب الشاقة، لعرف أن الفن كان في وقت شبابي المبكر مادة حرة تترنح في الهواء الطلق، ولم يمسك بها أحد، يعتقلها في دفاتر، ويدرسها للناس في الجامعات، لا هنا ولا في أي مكان آخر..

قلت:

- تخصصت في صياغة قطع الديكور من الحديد..

- آه.. نحات إذن.. جميل.. جميل جداً معاليك أن يملك الإنسان موهبة، ويصقلها بالعلم.

قال يصقلها، والصقل هذا من الكلمات التي لا أحبها، لقد تردَّدت على مسامعي آلاف المرات، كوني حداداً تربى وسط حدادين.. ودائماً ما تجد من يخبرك بأنك صبي موهوب، فقط تحتاج موهبتك لصقل. وقد بلغ بي الملل مرة، أن أوقفت كل نشاط، وظللت أبحث عن معاني كلمة صقل، وكانت ذات معانٍ كثيرة:

صقل، يصقل، صقلاً.

صقل الإناء: جلاه، وأزال صدأه.

صقل كلامه: هذبه.

صقل الدابة: اعتنى بتربيتها.

صقله بالعصا: ضربه بها.

صقلته التجارب: منحته خبرة.

صقل مواهبه: مرَّنها، ونشطها.

- عفواً معاليك.. لتسمح لي بإكمال مروري على المرضى.

قال الطبيب، ليضع حداً لإمساكي به في ثرثرة بلا معنى، كما يبدو.

سؤال أخير لو سمحت:

– هل يمكن أن تنتزع هذه القسطرة لفترة من الوقت؟ أتوقع ضيوفاً مُهمّين هذا النهار، بمن فيهم رئيس الجمهورية، ولا أريد أن أبدو معتلاً.. تفهمني دكتور؟

طبعاً يفهمني، والممرضة ستفهمني، وذلك الفراش المسكين سيفهمني. فلا قيمة لوزير بقسطرة يتدلى حبلها على جنبه، ويبدو في نهايتها كيس ممتلئ بسائل أصفر كئيب. المنظر قد يكون مقبولاً للوزير، وزوجته وأبنائه لو كان لديه أبناء، وربما لحارسه ومدير مكتبه، وزملائه الوزراء، ولكن ليس لرئيس الجمهورية بكل تأكيد. أصلاً الرؤساء ملولون، ويحبون تغيير الوزراء بلا سبب، ولو كان ثمة سبب، يزداد الملل أكثر..

وقف الطبيب يفكر قليلاً، كان وجهه جامداً، لم يتغير على الإطلاق، وحتى لو كانت أزعجته مسألة أن يأتي رئيس الجمهورية بحاشيته، إلى عنابره، فيبدو أنه أخفى انزعاجه جيداً.. قال أخيراً:

إزالة القسطرة.. لا.. لا نستطيع، لكن يمكننا إخفاء الكيس ليبدو لبقاً.. انتظر.

قام بطي الكيس، رفع قميصي، أدخله تحت بطني بسرعة، ربطه بخيوط من الشاش الأبيض ولصق عليه، لصقات كبيرة، أنزل

قميصي وتراجع خطوات للوراء وهو يقول:

- لا شيء واضح معاليك. ليزُرْك حتى أفلاطون نفسه، ولن يلحظ أي شيء.

بالطبع لن يهمني أن يجدني أفلاطون أو أرسطو، نظيفاً ومرتباً، وبلا علامات مساعدة طبية، بقدر ما تهمني نظرات الجنرال، الرئيس، وأعرف خطورتها من أيام معرفتي الأولى به، في ورشة الحديد. كان الرئيس يستطيع ببساطة شديدة أن يعرف بأن مروحة السقف البطيئة هذه أعلى رأسي، من ماركة ديوك الصينية المزورة، وليست فيليبس الإنجليزية كما كتب عليها. وربما لو صادف الممرضة سكينة، التي تتابع علاجي منذ أمس، سيعرف قبيلتها، بمجرد نظرة عابرة على وجهها. كان أملي أن لا تعثر نظراته على الكيس والقسطرة.

-١١-

في العاشرة تماماً، وكنت أجلس مرتباً على سريري، وكيس التبول في درجه السري تحت قميصي، حيث ألصقه ستالين، وليز مرتبة أيضاً بعد أن ذهبت إلى البيت مبكراً، وعادت امرأة وزير، لا ربة منزل مذعورة مثل الأمس، جاءني أول زائر.

كان مدير مكتبي سليمان صافي، كما توقعتُ، وشممتُ عطوره المخلوطة، حتى قبل أن يطرق باب غرفتي. كان أنيقاً بلا تحفظ، فقط كان سيئاً في اختيار رباط العنق، كعادته، ويحمل حقيبة سوداء لامعة، غالباً داخلها أوراق تحتاج توقيعي أو اطلاعي عليها، وإبداء الرأي، حتى لو بهزّة من رأسي. كانت سخافة حقيقية، ومدراء المكاتب هؤلاء برغم إجادتهم لعملهم غالباً، إلا أنهم ينحازون بشدة لأي أوراق مغلفة، تصل إلى مكتب المسؤول ولا يرتاحون إلا حين يفضونها، عارضين محتوياتها عليه، وقد أخبرني وزير سابق للتخطيط، ترك الوزارة في التغيير الأخير، أنه كان يجري عملية لاستئصال المرارة، وأن مدير مكتبه ظل يرابط أمام غرفة العمليات وفي يده حقيبة، حتى شاهده يخرج محمولاً على محفة، وما زال أثر المخدر في دمه، ولسانه، لم يقل المدير: الحمد لله على السلامة المتعارف عليها في مثل تلك الظروف، وعرض أمام عينيه شبه المغلقتين، ورقة عن إحالة عدد من الموظفين للتقاعد، قال إنها تحتاج لتوقيعه الفوري. أيضاً أخبرني اللواء عبد الرحمن، الذي كان قائداً للجيش، أنه كان

داخل طائرة مروحية، ومعه عدد من الضباط، بمن فيهم سكرتيره، وكانوا عائدين من جولة في الأقاليم، لكن المروحية سقطت، ونجوا جميعاً لحسن الحظ، وفوجئ القائد وهو يخرج من تحت الحطام المشتعل، متسخاً، ومصاباً، وينزف، أن سكرتيره المصاب أيضا ردَّد:

- لا تنسَ سيادة اللواء.. لديك موعد مع قادة الأسلحة، بعد نصف ساعة.

خرجت ليز تتمشى في المستشفى، تاركة سليمان ينفرد بكآبتي ويزيدها. كان قد عرف منذ ساعة فقط، كما ذكر، حين لم يجدني على مكتبي، واتصل ببيتي هاتفياً، ليخبره أحد هناك، أن معالي الوزير، محتبس التبول، وتم نقله للمستشفى مساء أمس. كان منزعجاً، كما بدا من صوته، ولا أدري أهو انزعاج حقيقي، أم مجرد محاولة انزعاج، ليورط بها عواطفي، وكان في الحقيقة لا يدري أنني منزعج أيضاً، منزعج من هلوسة الأمس التي أكدها لي بكلامه الآن، وأصبحت في حكم اليقين: لم يكن منظر المُصطفين لاستقبالي أمام المستشفى، سوى وهم أمعنت في ترتيبه، بحيث بدا حقيقياً فعلاً.. حتى البغضاء، والعداوة بيني وبين أختي الرضيعة الزائفة، كانتا شيئاً مرتباً..

لن أمعن في الانزعاج، كما ذكرت سابقاً، ولن أستشير النفسانيين لأن استشارتهم مشكلة، ولديهم أمراض خاملة كثيرة، غالباً ما يوظفونها لدى الناس بلا أي مبرر. سليمان هذا الذي

يجلس أمامي الآن مرتباً، وأنيقاً ما عدا لون رباط عنقه، ووسيماً لولا أثر جرح قديم أسفل عينه اليمنى، ودقيقاً في كل شيء، ويعرف حتى الزمن الذي يستغرقه براد الشاي حتى يغلي ماؤه، والخاطرة في الذهن حتى تصبح فكرة، أصيب منذ عامين بضيق في التنفس، ورغبات متوسطة الفظاعة، لطعن مغنية، كانت تسيطر على البرامج الإذاعية، وتبث أغنياتها في كل وقت، واستشار أطباء نفسيين وشخصوه بمرض انفصام الشخصية، وأنه لا بد أن يترك العمل، ويحجز في عنبر خاص بالمرضى الخطرين، وحدّثني الطبيب بنفسه، طالباً إعفاء سليمان من الخدمة، لكن ذلك لم يحدث، لم أعفه من الخدمة، ولم أقلل حتى من أعباء وظيفته. وما تزال المغنية موجودة وتغني وتسيطر على البث الإذاعي، والتلفزيوني أيضاً، وسليمان موجود ويدير مكتبي بجدارة، والأعراض موجودة عنده بفظاعتها المتوسطة نفسها.

وفي جلسته غير المريحة، ولاحظتُ عدم راحتها في تغييره وضعية ساقيه باستمرار، بمدِّهما للأمام، أو سحبهما تحت المقعد، أو الوقوف دفعة واحدة والجلوس مرة أخرى، والتي استمرت حوالي نصف الساعة، ذكر سليمان أنه مضطر لتغيير مواعيد اجتماعاتي مع سفيري اليابان وبورما، ومفوض جمهورية جزر المالديف في البلاد، وكانت ستُعقد في هذا الأسبوع، وتناقش فيها أجندة التعاون الثقافي. وكنا اتفقنا أن نرسل لتلك الأقطار جدات حقيقيات، منتقيات بأفضل الحنان الموجود، ليعرضن مهاراتهن

في تنويم الأطفال بالحكايات، وصناعة سحارة الجدة، وهي خزانة من الخشب الأملس الخفيف، بها كل ما تحتاجه الجدة من أشياء طبيعية وأشياء مخرفة، لممارسة دورها في التعاطي مع الحياة، جدات اليابان، كن يحتجن لهذه السحارة بشدة، وقد تعبن من سحارة التكنولوجيا، التي تنتشر هناك، ولا تمنحهن فرصة أن يكن واقعيات وسلسات. أيضا كيفية صناعة الجبن والزبد، من رج اللبن في أوانٍ من جلد الغنم، هذا طلبته نساء بورما بالتحديد.

وافقته على تأجيل تلك الاجتماعات بالطبع، فلم تكن عاجلة، والجدات متوفرات بكثرة في البلاد، قد يموت بعضهن، لكن الخرف، يصنع أخريات.

– أيضا معاليك، من المفترض أن لدينا جولة يوم السبت القادم على مواقع الآثار في قرية هبين، التي يدعي موسى قمرين، شيخ قبيلة الطناجرة أنها لقبيلته، بالرغم من أن الطناجرة لم يسكنوا تلك المنطقة قط، وأكد خبير في الوزارة أنها من آثار سلاطين وملوك قدماء، عاشوا في تلك المنطقة، واقترحنا من قبل لمعاليك أن تستمع إلى الخبير مباشرة في الموقع. هل ألغي تلك الجولة؟

– نعم ألغِها..

أجبتُ بصرامة، وقرف حقيقي، ورغبة في أن أنهض من سريري، لأضرب أحداً بقبضتي. كنت من النوع الذي لا يحب الآثار ولا الذين تركوها، ولا أعرف لماذا يهتم العالم كله ببيت من

الطين الناشف، دفنته العصور المتعاقبة، أو بتمثال للأميرة: نون أو لو، أو سن سن، من اللائي يدعي علماء التاريخ أنهن عشن في القرن كذا والقرن كذا قبل الميلاد، ويرهقون بتلك السير أذهان التلاميذ في المدارس، والجامعات. لا بأس من المعرفة كما قلت كثيراً، ولكن ليس معرفة تجرُّ للماضي، وإنما معرفة تزيح غطاء المستقبل.. تأففت مرة أخرى، وقلت لسليمان صافي:

– فليذهب وكيل الوزارة لمعاينتها وكتابة تقريره، وسأطلع عليه فيما بعد... ماذا يفعل طوال اليوم غير تدخين السجائر، ومغازلة أبرهيت؟

ضحك سليمان بحذر، ويعرف تماماً رأيي في السيد وكيل الوزارة، الذي منذ أن عُين بواسطة رئيس البلاد، في العام الماضي، لم يقم بأي نشاط سوى شراء الأمشاط مختلفة الألوان، التي يسرح بها شعره، وأقلام الحبر الجاف ماركة بيج، التي يكتب بها الشعر العمودي المقفى في وصف أبرهيت الحبشية، إحدى العاملات بقسم التراث، وكان أن رقاها إلى رتبة خليلة للوكيل، ذلك النوع من الخليلات اللائي لا يمنحن أي شيء وقد يحصلن من الذكر المتيم على كل شيء.. الوكيل لم يكن عجوزاً مثلي، على العكس كان نضراً وفي ثلاثينات العمر، وبذلك فإن السم اللذيذ الذي في دمه، من نوع آخر غير السم الذي في دمي، وأقصد سم ميمونة.. وكنت متأكداً جداً أن الوكيل سيستبدل أبرهيت إن عاجلاً أو آجلاً بخليلة جديدة، إن بقيت خليلة في ذهنه فقط، وبعيدة عن واقعه، وبيته السري الذي لا يعرف أحد مكانه.

جاءني صوت سليمان:

- منذ يومين، تركت أبرهيت قسم التراث، وانتقلت لقسم إدارة المعارض في المبنى القديم، بناء على تعليمات الوكيل. وتم تعيين فتاة اسمها ثريا، في قسم التراث.

ابتسمت طبعاً، وشكرت حدسي الأخاذ الذي استدل على التغييرات بلا أي مساعدة، هناك أشياء كثيرة أعرفها بمجرد التخمين فقط، أشياء أعرفها بالدراسة ومطاردة المصادر التي أتوقع أنها تحمل يقيناً، وعندي الآن بعد أن هدأت مثانتي وبدأت تعمل بمساعدة القسطرة، جوع غير اعتيادي لمعرفة شيء عن ميمونة، ربما يكون عند سليمان.

اعتدلت في جلستي المرضية، وأحس بثقل الكيس المربوط في بطني، وقرف شديد من أنبوب التبول، بسبب أنني مضطر للسؤال عن امرأة لطيفة، ناعمة، في وضع غير لطيف، مع هاتين الكارثتين: الكيس والأنبوب:

- قل لي يا سليمان: ماذا فعلت مع الفتاة الصغيرة ميمونة؟

رفع حاجبيه، وقلص ملامح وجهه، ربما مندهشاً بحق هذه المرة، فلم تكن ثمة فراغات كاذبة، أستطيع ملاحظتها في الوجه:

- من ميمونة معاليك؟

- تلك الفتاة المجنونة التي اقتحمت جولتنا أمس بعد أن

افتتحنا المعرض التشكيلي في قاعة الراحل أحمد، وعبرت عن مشاعر سخيفة، بحديث سخيف.

هل كانت المشاعر سخيفة فعلاً؟

هل كان ما تحدثت به سخيفاً فعلاً؟ كلا.. كلا.. كان ألطف حديث أسمعه طوال عمري، أنعم حديث، أرقى حديث، أكثر حديث اقترب من قلبي بهذه الطريقة. عذراً يا فتاة، أنا مضطر لإخفاء الوصف اللائق للحديث ونعته بالسخف. لا أريد أن يعثر سليمان على أخطاء جديدة في مسيرة تعكزه معي، بالرغم من أنني أثق تماماً بأنه لن يلدغني. النادل الخفيف، المموج الشعر الذي التقطته من طرف بحيرة سويسرية، وكان بالكاد يأكل أو يشرب، الآن يسكن في الحي الذي أسكنه، نفسه، ويقود سيارة أيضاً..

- نعم.. هل كان اسمها ميمونة؟

- لقد نسيته معاليك. لم أفعل شيئاً.. لقد كانت فتاة مجنونة أخذت فرصتها في مصافحة معاليك.. ولا أظنها تريد شيئاً.

- عموماً لا أريدها أن تتضرر بسبب حُمقها، وحين أعود لمكتبي أعطني معلوماتها، ربما كانت مريضة نفسياً وتحتاج لمساعدة.

هذا الحديث المهتم مني، وخاصة الجزئية الأخيرة، لم يكن غريباً ولا يدعو للريبة، فقد اعتدت من حين لآخر أن أمد يد العون لأحد، ليس كل من يحتاجني بالطبع، والمحتاجون كثيرون، ولكن

بعض الذين أنتقيهم، بطريقة تخمينية، وأثق في أنهم سيُروِّجون لفعل الخير الذي أديته لهم، وبالتالي تقل لغة الكره التي يمدونها للسلطوي، مهما كان ظريفاً وطيباً.

أنا في عُرف البعض ظريف جداً، وفي عُرف البعض الآخر طيب، وفي عرف عامة الشعب كما أعتقد: انتهازي، همجي، أناني، دموي.. المهم أنني سعدت بإيجاد ثغرة حشرت فيها سيرة ميمونة، وربما في المستقبل، أجد ثغرة من نوع آخر، أستخدمها في معرفة الراحل أحمد، صاحب القاعة المملة تلك.

- طبعاً معاليك.

قال ونهض واقفاً..

كان وجهه عادياً جداً، ولا أدري هل كانت هناك ابتسامة ساخرة ترفرف، أم أنها هلوسة أيضاً؟ هلوسة صغيرة، ولا تستدعي القلق؟

بعد أن ذهب سليمان حاملاً توقيعي على ملفاته الباردة، والتي جعلها ساخنة بلا معنى، جاء كثيرون لعيادتي ومُنع أغلبهم من الدخول، وأخبرني بكَّار بابو آدم، الذي جاء بعد ذلك، وتخشَّب أمام غرفتي، مؤدياً لوظيفته الروتينية، أن عدداً كبيراً، من سكان حي حفرة، الذي وُلدت فيه وعشت فيه حتى سن الخمسين تقريباً، جاؤوا وانصرفوا، وكانوا محتقنين بالغضب، واستغربت مجيئهم، ولم أؤدِّ لحيهم أي خدمة، وكان محتاجاً لآلاف الخدمات.

جاء الذين شاهدتهم في هلوسة الأمس أثناء الاحتقان والوجع: الهندي الناطور الذي انتهت خدماته، ولم يلتزم بقرار إحالته للتقاعد، الدب حسن بائع التفاهات الصغيرة، وحلوى الزنجبيل عند باب الوزارة، إضافة إليه هو بكَّار، وسليمان صافي بالطبع، الذي جاء وانصرف، وأيضاً جاء سعد هضربة، وكان أشهر مشجع لكرة القدم في البلاد، وله صيت يفوق حتى صيت الوزراء، والمغنين وخفراء الأبواب في المستشفيات، الذين كانوا نجوماً اجتماعيين.

لم يكن هضربة صديقي على الإطلاق، ولا كنت أعرفه جيداً، واستطاع الدخول بما يملكه من شهرة، جاء حتى سريري، برك على ركبتيه، قبَّل رأسي وجبهتي، وكانت يده اليمنى مرصعة بالخواتم الذهبية، وفي عينيه كحل كثيف، وأيضاً لم يعجبني عطره، وأظنه عطر: مومو أو لازوردي، أو واحداً من تلك العطور الشعبية المخلوطة بالمسك والعنبر. كنت مستغرباً جداً من تلك الزيارة، وأعرف أن لا مصلحة في وزارتي، وبحدود سلطتي، لهذا العجوز الذي لا يستطيع أحد تحديد عمره بالضبط. وسألت بكَّار بابو، الشعبي الأقرب لتلك الطبقات وأخبرني بلهجة المتمكن من الأسرار، وشممت رائحة شماتة في لهجته، أن سعد هضربة العظيم، لم يأتِ لزيارتي وحدي أو خصيصاً، كما قد أعتقد، وأصلاً لا يعرف أنني وزير الثقافة، ومن الممكن جداً أن لا يكون يعرف معنى كلمة ثقافة، وأن لها وزيراً يشبه الوزراء الآخرين. إنه روتين

شهري، يمر فيه هضربة على المستشفيات العامة، يتمنى الشفاء للمرضى، وقد يضع بجانب أسرّة البعض شيئاً من الخبز اليابس، والتمر، وقنينة ماء صغيرة، يقول بأنها من زمزم، وصادف أن كان مروره الشهري هو اليوم، وزارني من ضمن المرضى الآخرين.

- ولماذا لم يضع لي ماء زمزم إذن؟

كنت أسأل بكّار في حنق، وأكاد أقسم في سري، أن أنهي خدماته عندي فوراً، وبمجرد أن تخرج القسطرة اللعينة عن جسمي، ويعود البول عادياً عبر قناته الطبيعية، لولا أن تذكرت فوائد خدمته لدي، وأنه لم يقصر في خدمتي قط، وتلك الجلافة في حديثه ليست جديدة، ولكن جزءاً من روتين حديثه العادي. ربما كان خطئي أنني سألته، وكان من المفترض، أن لا أدقق في مسألة زيارة مشجع كرة القدم لي.. أعتبره مجرد زائر، لا أقل ولا أكثر.

- لا يعطي الناس كلهم معاليك.. مؤكد عرف بأنك من الأثرياء وتستطيع أن تجد ماء زمزم بسهولة. لقد وزعها في العنابر الفقيرة، للمرضى المساكين.

- وكيف عرفت بذلك؟ هل كنت معه.

قلت وقد ازداد حنقي.

- لا معاليك.. إنها عادة يعرفها كل الناس عن مستر سعد.

أربكتني كلمة مستر، تلك التي نطق بها بكَّار بلا أي غرابة أو دهشة، كأنه يقول إن الشاة اسمها الشاة، والحمار المربوط في تلك الزريبة اسمه الحمار، كأنه يسمي الشجرة: شجرة، والهواء هواء. فلم يكن في البلاد كلها بعد أن خرج المستعمر قبل سنوات طويلة، ومات من بقي من رعاياه أو ذهبوا هم أيضاً مَنْ يمكن أن يحمل لقب مستر، باستثناء الأطباء الجراحين أمثال الدكتور: ستالين، وهذا لقب علمي صرف، لا علاقة له بالتهذيب، والمعاملة، أو غيرهما. من الذي سمَّى مشجعاً لكرة القدم، أنثوي الوجه والسلوك ويتعطر بعطور سيئة: مستر سعد؟

- من سمَّاه مستر سعد؟

- المشجعون كلهم معاليك..

سكت، وكرة القدم تلك حكاية أخرى، ومنذ نهاية حقبة الستينيات وبداية السبعينيات، حين تأسست الأندية الرياضية، وأسس اتحاد عام للكرة، وأنشئت المسابقات الرنانة مثل: مسابقة الدوري العام، والدوري الممتاز، والدوري الوطني، ومسابقة كأس الرئيس، منذ حدث ذلك، والبلاد كلها إما تلعب كرة القدم أو تشجعها.. إما تتعارك في الشوارع بسببها، وإما تتناحر في البيوت للسبب نفسه، وعندي واحد من أبناء جيراني القدامى، في حي حفرة، واسمه عصام، انتحر ذات يوم بحبل دلاه من سقف غرفة في بيته، بسبب أن عصام زلط، لاعب أحد الفرق الكبيرة وكان

يحبه، ويحمل اسمه أيضاً، أضاع هدفاً مضموناً لفريقه، وهبط الفريق إلى الدرجة الثانية.

أنا لم أحب الكرة يوماً، ولا أرى شيئاً يعادل قبح التفاعل معها، لا أمانع في ممارستها رياضة، وتشجيع ممارسيها، أما القتال والتناحر، والموت، ومصاحبة واحد مثل مستر سعد، فهذا ما أعتبره قبحاً.

سكت ولن أزيد.

فجأة خطر لي خاطر مزعج:

- هل حضرت ست النساء يا بكَّار؟

- أخت معاليك في الرضاعة؟

لا أعرف كيف تذكرها، وكان من المفترض أن لا يتذكرها أبداً، فقد ظهرت مرة واحدة فقط، ومنذ ست سنوات، وبعد أيام من استلامي لحقيبة الثقافة، لا.. من المفترض أن لا يكون يعرفها أصلاً، فلم يكن موجوداً، أو لم يكن عُيِّنَ لحراستي في تلك الأيام.

وجدت الحديث يأخذ مجرى آخر.

- ومن أين تعرفها؟

- إنها زوجة ابن عمي.

نعم.. نعم.. الموضوع يحتاج لوقفة ما، لكن لن أقف،

سأتجاوزه، ولطالما سمعت بمصادفات أغرب من هذه، مصادفات مثل أن يتزوج الرجل فتاة، ويكتشف في اليوم التالي، أنها الشجرة التي كان يرويها بالماء زمناً طويلاً، وتحولت إلى فتاة. لن أتوقف..

هل جاءت؟

- لا.. معاليك.. لم أرَها.

أحسست بارتياح كبير، أمرت الحارس أن يتخشَّب خارج الغرفة. وكانت ليز المرتبة قد عادت من جولتها في الممرات. قبّلتني على جبهتي وانصرفت، ولا بد تفكر في أيهم المسكين، الذي لم يحظ برعاية جيدة منذ أمس. ستعود في المساء غالباً، وربما تحاول أن تستخلصني من هنا قبل أن يكتمل علاجي. لا يهم إن كنت مريضاً لا أزال، المهم أن لا أكون في مكان يسهل فيه قراءة مرضي.

-١٢-

السنوات الخمس الأولى في علاقتي بموناليزا البلهاء- ليز، وقضيناها كلها في بيت حي حفرة، أي بيتي الذي ولدت فيه وعشت معظم أيامي في دفئه ورحابة صدره، صحبة أمي حتى اكتهلت، ورحلت، وصابر قبل أن يرحل صغيراً جداً، وفاطمة قبل أن تلوي عنقها في اتجاه آخر، مبتعدة عن الوطن. تلك السنوات، سميتها أولاً: سنوات الشهد، كناية عن شهد حقيقي يتدفق باستمرار، وأغرفه حتى أشهق باختناق رائع، ثم سميتها سنوات الوصال المتعجرف، لأنني كنت مواصلاً لحياتي داخل البيت، ومتعجرفاً في الخارج إلى أقصى حد، لا ألتقي إلا من أريد أن ألتقيه ولسبب آخر غير الصلة الاجتماعية، أذهب إلى ورشتي بباصات النقل الحديثة، ماركة فوكسول، التي ما تزال رزينة ومنتظمة في الأداء، وأعود منها بنفس الوسيلة، أمشي في طرقات حي حفرة، لا أعبأ بالتشتت والعشوائية، ونداءات الهمج التي تصدر من هنا أو هناك، وربما لأصوات معارف يعاتبونني، لأنني ألغيت تدخلهم في شؤون حياتي تماماً. لا أعبأ بنداءات "سوق السروال"، الذي ظهر في الحي حديثاً، وكان أغرب سوق أشاهده، لم يكن في الحقيقة سوقاً ثابتاً له هيبته واحترامه وبضائعه المرصوصة على رفوف البيع، وإنما بضائع خفيفة ومختلفة، يحملها الباعة على جلابيبهم المفرودة، المرفوعة إلى أعلى وتبدو السراويل من تحتها، وربما لذلك سمي سوق السروال.

كان السوق يتشكل يومياً أمام أي صف من البيوت، خمسون أو ستون بائعاً بأثوابهم المحملة بالتوافه، وسراويلهم المتباينة في نظافتها واتساخها، يزحمون الهواء وينادون الناس بأصوات بعضها جذاب، وبعضها في غاية الكآبة، وأشبه بالنواح. وقد أخبرتني ليز أن السوق تشكل مرة أمام بيتنا في غيبتي، وخرجت بضغط الفضول تتطلع، كانت محتشمة في اللبس، تغطي رأسها وساقيها، وتتبع عرف ظهور المرأة تلك الأيام، أي بأقل قدر من لفت النظر. لم تلفت نظر البائع حين طلبت ليموناً، وطماطم، وحفنة جرجير، لم تلفت نظره حين دفعت له ملاليم عدة، كانت تحملها في اليد، وبالرغم من ذلك، أمسكها البائع من ذراعها، شدها بالقوة، وترى أنفاسه متهيجة، ونوازع الشره كلها في عينيه. كان السوق متشكلاً، خمسون أو ستون بائعاً يصطفون، ولا أحد هبَّ ولا استعر غضباً، ولا تغير رص السوق ولا ارتفاع الجلابيب، أو انخفاضها، ثمة مشترون أيضاً ولا نجدة. انفلتت ليز من اليد الخشنة للتاجر بصعوبة، واندست في وسط نساء أخريات، وابتعدت عن المكان، لتعود حين انقشع السوق من أمام البيت.

أذكر أنني توعكت في تلك الأيام، أصبت بهوس القصاص، وظللت أكثر من سبعة أيام، أحمل سيخاً حديدياً مسنناً، استلفته من ورشتي، يتبعني سيف الحلولو، أحد العمال الأقوياء في الورشة، وكان قبل أن يتوظف عندي، قاطع طريق من الدرجة

الأولى، قام بقطع أكثر من مئة طريق داخل المدينة وفي أطرافها، وكان فيها طرق لتجار، وصيادين، وحتى رجال شرطة، وحصد غنائم بلا حصر، ولم يقبض عليه أحد قط، حتى قبض على نفسه بنفسه، لم يُعِدْ ما قنصه في السابق بالطبع، ولكن تعهد أن يشارك في قهر الشر، أينما كان وسيكون. كان الحلولو مجنداً معي في البحث عن التاجر السفيه، وليز تتبعُنا، ونتابع سوق السراويل، أين تشكل؟ وفي أي زاوية يعرض توافهه؟ ولم نعثر على وجه ذلك التاجر قط. ولا كنا نملك اسماً لنسأل..

قلت لليز، لعله لم يكن من تجار السراويل.

قالت.. لا.. كان منهم، وكان يبيع الخضراوات.

بعد ذلك هدأت، أعدت السيخ الحديدي إلى الورشة، وعاد الحلولو أيضاً ليمارس أعماله كحداد جيد، وتعلمت ليز أن لا تخرج كثيراً في حي بلا انضباط. كانت نشأتْ في حي مماثل، لكن حتى طمع الأحياء وتقديرها للأنثى من عدم تقديرها، يختلف من حيٍّ إلى آخر، وأيضاً من زمن لآخر، وكانت أمي تقول بمناسبة وبغير مناسبة: لو كسَّرت زينب ساقيها، لما برطع عبد الصمد.

لم أكن أعرف معنى هذا المثل بالتحديد، ولا مناسبة إطلاقه، لكن يبدو عنصرياً أيضاً ومثبطاً لهمم النساء. أن تحد الأنثى من حركة ساقيها، فيظل الذكر ساكناً حتى وهو يتجول في الشوارع. أمي نفسها لم تكسر ساقيها في حي حفرة هذا، حتى تكسرت

الساقان بفعل مرض الروماتيزم، الذي أصابها بداية الخمسينيات، وكان مكتشفاً حديثاً وبلا علاج أو حتى مهدئات. كانت تلطخ ركبتيها بنبات: القرض المر، فتستطيع أن تمشي متعكزة ولكن لأمتار فقط، ثم أقلعت حتى عن تلك اللطخات، والأمتار التي تتعكز فيها بفضلها.

السنوات الخمس سميتها في النهاية: سنوات الدم، والفقدان، وكان لليز الرقيقة دخل كبير في تلك التسمية. أربعة أشهر فقط على الزواج، وسقط منها طفل، لم يكن طفلاً حقيقة ولكن كتلة من اللحم، غير المميز، كتلة حمراء، غاضبة ولها رائحة عكرة، حملتها في قطعة كبيرة من الشاش، ودفنتها في حفرة عميقة في بيتي، وتركت عملي لأكثر من شهر حتى أنعش الأم وأنسيها الفقد الصغير.. نعم كان فقداً مادياً صغيراً، وفي نفس الوقت، فقداً جمَّاً إذا ما قيس بمقياس التدهور وهبوط المعنويات.. كانت ليز في الأيام الأولى، بيضاء وشاحبة وتأبى بشدة أن تأكل أو تنام، تتحدث إلى ثدييها الصغيرين، تعدهما بأن تملأهما بالحليب قريباً، وإلى بطنها الضامر، تعده بالكثير من الأجنة الناجحة، وحين اقتنعت أخيراً بأن لا شيء سيعود، استدارتْ لتواجه الحياة الحقة، وكانت ليز القديمة، ذات تسريحة الشعر المثيرة، والعينين الواسعتين، والرموش الطويلة، كانت الدافئة العميقة التي ستأمرني أمراً أن أعود لعملي في ورشة الحدادة، وأن لا أنسى أن أحضر لها في أقرب وقت، ماكينة خياطة سنجر، التي دخلت البلاد بكثرة في تلك الأيام، وامتلكها الخياطون الكبار كلهم، وبعض

ربات البيوت اللائي كن يبحثن عن سلوى، بعد جروح غائرة، أو لمجرد التسلية، في عدم وجود كثير من خيارات التسلية. كنت سمعت بتلك الماكينة طبعاً، وشاهدت إحداها في السوق الكبير، عند خياط يوناني اسمه: سركيس كوركيس، ويختصره العامة إلى سيركي كوركي، كان يخيط قميصاً أبيض من قماش لماع، وجمهرة من الناس ملتمون حوله، يشاهدون ذلك السحر، الذي يحول القماش المقصوص، في دقائق قليلة إلى كسوة.. كان البعض يصرخ: سحر.. سحر.. والبعض يصيح: الله أكبر.

قلت لليز وعيناي داخل عينيها: حاضر، سأحضر ماكينة سنجر.

ولم أسألها كيف ستستطيع تشغيلها؟ فلم يكن مهماً إن عملت عليها أم لا؟ المهم أن ليز انتعشت، أدارت عينيها إلى الحياة، مرة أخرى، وبالتالي ستعود الحياة الجيدة إلى بيتي مجدداً.

سنوات الفقد والدم مستمرة، وفي كل حمل جديد، نزيف متكرر، وليقرر أحد أطباء التوليد المتبقين بعد خروج الإنجليز، واسمه دكتور: سيني، أن رحم السيدة موناليزا جعفر لم يعد قادراً على السيطرة على النزيف وإيقافه عند الضرورة، وأيضاً غير قادر على الاعتناء بجنين قد يتكون فيه، وتنميته حتى يخرج، وكانت ليز تعرضت لعمليات نقل دم متقطعة، وأصيبت بجراثيم الملاريا في زمن كان من الصعب معرفة الدم النقي من الدم المكفهر، كان الطبيب يقترح بكل بساطة أن يُزال الرحم نهائياً.

أتذكر ذلك اليوم جيداً، اليوم الذي علمت فيه ليز أنها لن تغدو أماً أبداً، وأن عليها كي تعيش أن تتخلص من أداة أمومتها، التي لم تعد فعالة لإنتاج أحد ما، وفي نفس الوقت، تبدو أشبه بالسكين المسلولة لانتزاع الحياة. علمت ليز وبقيت صامتة لبعض الوقت، لعلها كانت تشتم في سرها، مصيراً قاحلاً، باغتها هكذا، لعلها كانت في لحظات إيمان ثري، تبتهل، وترضى بالنصيب، ولعله كان مجرد صمت كئيب لا أقل ولا أكثر. وحين نطقت أخيراً، كان صوتها جذاباً جداً، صوت أغنية راقصة:

– لا بأس يا جمعة.. دع الإنجليزي يأخذ رحمي.. أفضل أن تعيش معي لا أن تعيش بدوني.

الحياة معها ولا الحياة بدونها.. هذا ما كنت أريده.. وكانت تعرف.. صاحبة لوحة الأسنان الضاحكة، أسنان الملكة المشوهة، ومنذ ذلك الحين، تعرف أننا نعيش لبعضنا، ولو حدث شيء لأحدنا.. فلا حياة رائعة للآخر، وربما لا حياة.

في صيف 1965، وفي المستشفى الحكومي الوحيد في ذلك الوقت، في وسط العاصمة، قريباً من محطة السكة الحديد، وكلية الطب التي تخرّج منها كثير من الوطنيين، حتى منذ عهد الاستعمار، أزيل رحم ليز، أزيلت أداة الخصوبة بعد أن باتت أداة تعذيب شديد. كان أفضل ما في الأمر، أن ليز لم تبتئس كما حدث لها في فقدها الأول أو الثاني، كانت رائعة في تقبُّل الأمر، عادت إلى بيتها، لتتزين، بزينتها القديمة كلها، لتسرح شعرها

وتدهنه بالإثارة، لتحلية الليالي بألوان التحلية، وأيضاً دهنها بالمغص أحياناً، مثل أي ليالٍ يقيم فيها زوجان.

أظنني غفوت قليلاً.. بعد أن خرج الزوار الذين استطاعوا الوصول إلى غرفتي.. وأعني سليمان صافي، وبكّار آدم، وسعد هضربة الذي لم يزرني حقيقة، وزار مرضى المستشفى كلهم، زيارة روتينية ثابتة.. لا أدري لمَ كانت تتراءى لي أيام فقد النطف المفقودة، وأزمات ليز، ولماذا خطرت ببالي كاملة تلك الأيام الحلوة المرة؟ يقولون إن الذكريات تهاجم من ينوون الرحيل، أو ينوي الرحيل أن يُؤويهم، وربما أكون اقتربت.

شاهدت شبح امرأة يعبرُ مسرعاً أمام الباب شبه المفتوح للغرفة. لم تكن ممرضة أو عاملة، كما يبدو من لبسها، لعلها زائرة. جاءت من أجل شخص آخر.. لعلها ميمونة..

ليتها كانت ميمونة وأطلت من الباب الموارب، وحيَّتني: الحمد لله على السلامة.. معالي الوزير..

لا..لا.. لا أريد ميمونة هنا.. أريدها هناك، في الأماكن الخلابة.. الأماكن الخضراء، والمحاطة بالماء ويكون وجهُها.. هو الوجه الحسن.. بدت لي جُمَل تمني السلامة، التي تردد في حالتي، مثل: سلامات، وكفارة، ولا بأس عليك، كئيبة جداً ولا تساوي شيئاً بجانب جملة: أنت فتى أحلامي معالي الوزير.. هذه المرة وبالرغم من أنني تذكرت الفتاة ميمونة في أعقاب انغراسي في

ذكرى مأساة ليز، وعذوبتها في نفس الوقت، إلا أنني لم أحس بأي وخز من ضميري.. لتظل ليز موجودة في موقعها.. ولْتأتِ الجميلة، اليانعة، وستجد مكاناً آخر.. السؤال هنا فقط:

أي المرأتين سيكون موقعها عامراً بارتباكي أكثر؟

-١٣-

الهرج والمرج.

هي جملة ولكن في الحقيقة أقرب إلى الكلمة الواحدة.

سمعت بتلك الجملة/الكلمة كثيراً، ربما مئات المرات منذ وعيت وحتى قبل أن أعي جيداً.

الهرج والمرج.

- يقولون: حدث هرج ومرج في مكان ما، في لحظة ما..

- أحدث قدوم الشيء هرجاً ومرجاً في المكان.

- لا تحدث هرجاً ومرجاً.. أرجوك.

بالطبع كان الهرج والمرج يختلف باختلاف مكوناته، والمكان الذي يحدث فيه.. هناك مكونات تجعله كثيفاً، خانقاً، خطراً وقاتلاً أحياناً، ومكونات تبثه لطيفاً، بسيطاً، متواضعاً إلى أقصى حد. كان ظهور ثور في سوق تجارية، وسط السلع البعيدة تماماً عن الثيران، مثلاً، يحدث هرجاً ومرجاً، ما يلبث أن يختفي حين يمسك بعضهم بالثور من قرنيه أو قدميه ويجرونه بعيداً.. ظهور نعامة في المكان نفسه، يحدث هرجاً ومرجاً لن ينتهي سريعاً، ولكن ببطء شديد.. أولاً لا بد من اختفاء الدهشة التي تكونت بظهور طائر غير اعتيادي وغير موجود بصفة عادية في بيوت الناس أو شوارعهم أو حتى أذهانهم، وثانياً ..اختفاء المنظر عن

الأعين. وكانت من أكثر الحوادث التي أشعلت الهرج والمرج في البلاد هذه الأيام، إعدام عثمان لومي، مدعي النبوة الذي تزاحم حوله الأتباع وصيروه نبياً بالفعل، وكان في الحقيقة مجرد صبي مجنون، متشرد، في العشرين من عمره، لربما تعاطى السحر وجعل عنزاً تطير، وسريراً من الخشب، يؤلف الشعر، وحماراً يردد أغنية للمطرب حسن عطية، وتلك اللافتة المعلقة أعلى مبنى البلدية، ومكتوب عليها: زيت الفهد النقي لطعام صحي، تغير كتابتها فجأة إلى: عسل النحل، خلاصة الملكات للبرود الجنسي، من دون أن يقترب منها أحد. كان الهرج والمرج، قد ساد عند استلام جثته بواسطة ذويه وعند تشييعه، الذي كانت تحرسه المدرعات. أيضاً ثمة هرج ومرج حدث حين ادعى قائد طائرة صغيرة، تابعة لشركة خاصة، تؤجرها كتاكسي جوي، أن ثلاثة أطباق طائرة، أحاطت به في الجو، حين كان عائداً إلى العاصمة، في رحلة بلا ركاب من إحدى مدن الأقاليم، وحدثه ركابها عبر جهاز اللاسلكي بلغة صحيحة، طالبين منه إحداثيات بلدة هرن. ولم يكن قد سمع ببلدة اسمها هرن من قبل، اعتذر لهم وحلقوا بعيداً.

الهرج والمرج كان من الشعب كله، وأدى لاشتعال جدلية وجود الأطباق الطائرة من عدمه. البعض يؤكد وجودها ويؤيد رواية القبطان، والبعض ينفي ويتهم القبطان بالسكر أو الجنون، وشركة التاكسي الجوي التي كان يقود طائرتها، لم تفعل أي شيء، تركت القبطان يروي قصته للصحف والناس في الشوارع، بمنتهى

البساطة وفي نفس الوقت، يقود طائراتها، وأذكر أن مدير المبيعات في تلك الشركة، وكان أسترالياً من أصل شرق أوسطي، اسمه ألفريد حمزة، ظهر في برنامج اسمه: نقرأ الحدث، ونقيمه، في التلفزيون القومي، وأكد أن الطلب على طائراتهم قد زاد، رغبة من الناس في رؤية أطباق طائرة.

طيب.. ماذا يحدث لو ظهر وزير مرموق في مكان يطرقه الناس كلهم؟

مؤكد ثمة هرج ومرج، ولكن ينتهي بسرعة.

ولو ظهر رئيس الجمهورية نفسه في المكان؟

هنا سيكون الهرج والمرج مضاعفاً.. مضاعفاً بشدة.

فجأة اختنقت غرفتي الضيقة.

اختنقت أولاً بثلاثة عمال زائغي الأبصار، ويتلفتون في قلق، ابتدؤوا طقس تنظيف سريع للأرضية اللامعة أصلاً، والطاولتين الصغيرتين الموجودتين، والمقعد الذي يجلس عليه مرافق المريض في العادة، وكل ما يمكن أن يبث كآبة، على البصر الفخم القادم لزيارتي، إن لم يكن لامعاً.

استغرقوا ثلاث دقائق فقط ثم تواروا.

اختنقت الغرفة ثانية بخمسة رجال أشداء، يرتدون الملابس السوداء، الرسمية، ونظارات الشمس المفترض أن تستخدم خارج

المكان، نظروا وتشمموا وتلصصوا وبركوا على ركبهم، نبشوا الأشياء المهملة تحت السرير، والأشياء التي كانت ستكون مهملة لولا أنهم نبشوها، والأشياء الأخرى، بما في ذلك، عدد من القساطر البديلة، وأكياس التبول الاحتياطية، وصندوق صغير من الكرتون، يحوي لعباً للأطفال، لا أعرف سبب وجودها هنا.

كانوا حرس الرئيس بالطبع، ويعلمون تماماً بأني وزير الثقافة، أو على الأقل، وزير في حكومة الرئيس الذي يقومون بحمايته، وأنني مريض في مستشفى، وليست لدي أي دوافع أو أسباب تجعلني أفكر في إيذاء من عيّنني وزيراً، وكنتُ قبلها صاحب ورشة حدادة، وأن الرئيس نفسه قد هبط اليوم من سمائه البعيدة، من أجلي، ومع ذلك لم يتوقفوا عن النبش حتى فرغت المهمة..

تكوّمت الأشياء المفضوحة في وسط الغرفة لحظات، ثم عادت للاختباء في مكانها القديم مجدداً.

صاح أحدهم فجأة وفي صوته رعونة عصا قاسية:

- إخلاء.. إخلاء.. إخلاء يا مواطن.

وتلفتُّ ذعراً، كنت أبحث عن شخص آخر معي في الغرفة، ويخلونه الآن بتلك الفظاظة، ولم يكن ثمة أحد.

إخلاء.. صرخ آخر، وأمسكني من كتفي، أوقفني على قدمي، بصيغة لم تحدث لي من قبل قط.

– ماذا تفعلون؟ أنا وزير الثقافة، والرئيس قادم لزيارتي، هل سيزور غرفة فارغة؟

– نعلم..

ردد الرجل وأفلت كتفي، نعلم، ولكننا نؤدي وظيفتنا بكل كلمة مكتوبة في دفتر تعليمات الحماية، وحتى لا نحس بأننا قصرنا في حماية رئيس البلاد.. اجلس معاليك..اجلس.

جلست، خرج أربعة من الرجال، وبقي واحد يبدو أنه مسؤول عن فقرة أخرى، فتح الباب بيد، وتخشَّب..

الهرج والمرج.. أصوات تهتف.. يحيا القائد.. يحيا القائد، نساء يزغردن.. أطفال يصرخون.. أصوات واهنة.. لا تستطيع بلوغ القمة في الصياح.. تردد يسقط.. رصاص قوي.. طبل ملتهب يدق. رصاص ضعيف.. أخطاء في الهتاف.. زغاريد أخرى.. ممرضات عبرن بقرب الباب المفتوح، وهرولن مبتعدات، والآن.. فخامة الفريق: علي فتح الله، أو الفريق علي الهباش، رئيس الجمهورية، بزيه العسكري المزدان بالأوسمة والنياشين، كبيراً وبهياً، ومبتسماً داخل غرفتي.

كنت قد اطمأننت أثناء الهرج والمرج، إلى الكيس المربوط في بطني، اطمأننت إلى أن رائحة الغرفة، معتدلة وخالية من اليوريا، والأملاح ومطهر الديتول السمج، الذي يفسد روائح الأمكنة بلا أي معنى.

- لا بأس .. لا بأس عليك يا حداد.

ردد الرئيس ولم يكن صوته القديم الذي أعرفه منذ سنوات طويلة، أيام حي حفرة، وحي لقمة العيش، والفتاة الجميلة: أنفاس. أيام أن كنت حداداً في ورشة، وكان صغيراً جداً، صغيراً في الحجم والرتبة، والبطش، وربما الطموح. كان صوتاً منتشياً، عميقاً، منتصراً على الأصوات الضاحكة والباكية كلها، وتلك التي ما زالت تأتي من بعيد: يحيا القائد. وربما كان يصلح صوت رشاش يرش الطلقات، أو إعصار، يعصر الهدوء ويحيله فتاتاً، أو صوت جنية، تنادي جنياً معشوقاً آخر الليل.

- سلمك الله.. وأبقاك ذخراً لنا يا فخامة الرئيس.

قلت وأمدُّ يدي لاحتضان اليد القوية، التي مدها.. وكنت أعرف مدى قوتها، وعدم اتزانها وقلة تقديرها للعواقب، ولدرجة يمكن معها أن تكسر يداً مسالمة ضعيفة.. كانت عشرات الحكايات تحكى عن يد الرئيس، وفيها حكاية موثقة بالصور، وروايات عدد من الحضور، شاهدوا عدم الاتزان حياً، ذلك حين انكسرت يد راعي إبل هزيل، في إحدى مناطق البدو، كان الرئيس قد ذهب إليها متفقداً، وأصر الراعي على مصافحته شخصياً. يدي كانت في الماضي يد حداد متمرس، يداً خشنة، وقبيحة الملمس، ويمكن أن تصمد أمام أي يد قوية، جبارة مثل اليد الممتدة الآن، ولا بد ومع إهمال استخدامها لسنوات، توصف بالسنوات الأرستقراطية، قلَّ تشبُّعها بالقبح وقد تنهزم، لكن يد

الرئيس كانت طيبة هذه المرة، استلمت يدي بنعومة، وأطلقتها بنعومة..

- لا بأس عليك يا حداد.. كفارة أيها الوزير.

صوت الرشاش، صوت الحرب.. يتردد.

- أسعدتني زيارة فخامتكم.. أسعدتني جداً.

هل أسعدتني فعلاً؟

لا أعرف حقيقة، ذلك ببساطة أنني لم أضع مقاييس محددة للسعادة الرسمية، بعكس السعادة الشخصية التي كنت أملك مقاييسها: ليز كانت مقياساً كبيراً.. ميمونة الشابة، وتذكرها، من المقاييس الجديدة المتقنة.

- كم يوماً يستغرق علاجك؟

- لا أدري.. ربما يومين أو ثلاثة.

- أنت مرتاح هنا؟ أم تريد السفر للخارج؟

- لا فخامتكم.. أنا مرتاح هنا والأطباء جيدون.

لم أقل إن الطبيب جيد حتى لا يستفسر عن ذلك الجيد، وقلت الأطباء لأجعل الأمر غامضاً وخارج نطاق الاستفسار..

الطبيب جيد يعني أن الدكتور ستالين جيد، والدكتور ستالين في الوقت الحالي ليس غريماً مباشراً من الذين يتظاهرون

في الشوارع، ويطالبون بسقوط السلطة. كان يهتم بمرضاه على اختلاف عقائدهم وأهوائهم، والرئيس قطعاً لا يعرفه ولم يسمع به قط، فقط سيبدو اسمه ملفتاً، وقد تنتهي علاقته بالطب في البلاد بلا أي سبب، سوى أن اسمه ستالين.

- جيد.. جيد..

قال الرئيس. كانت نظراته الآن قد سقطت على مكان ما، أعلى سريري، وتوقفت صامتة.. نظرات صامتة، تتأمل خطباً بدا جللاً.. نظرات المرافقين الذين انتبهتُ إلى نظراتهم، وفيهم وزيران لشؤون الرئاسة، ومدير الاستخبارات، تحولت إلى مكان التأمل، نظراتي تحولت أيضاً بصعوبة، بسبب وضعي أسفل الخطب.. كانت ثمة صورة كبيرة في إطار ذهبي، للرئيس بالزي العسكري المتمرغ في الأوسمة والنياشين، نفسه، الذي يرتديه الآن، وبجوارها صورة أخرى، أو لوحة مكتوبة بخط متمرس، جميل، وكتب فيها: الصبر طيب.. صورتان عاديتان إذن وليس من المفترض أن تكونا خطباً، يستدعي تأمل النظرات بكل تلك الكثافة. أدرنا وجوهنا لنواجه عيني الرئيس، لكنه لم يدر عينيه، ليواجهنا.. فجأة نطق:

- هل تعرفون مغزى هذا المنظر؟ أعني صورتي المبجلة، ملتصقة بعبارة: الصبر طيب؟

لم يجب أحد، ولا أعتقد أن أحداً يعرف الإجابة، فقد كان أمراً عادياً للجميع، ولوحة الصبر الطيب بالذات، تكاد تكون

ملتصقة على أي حائط، في كل بيت، في الوطن كله.

- هذا يا سادة يعني أنني بلاء، فلا شيء يستوجب الصبر الطيب، أكثر من البلاء.. يا ضريس.

وانتفض اللواء حيدر ضريس مدير الاستخبارات: نعم سيدي.

- ابحثوا عن العامل الذي وضع هذا التنسيق، ونبهوه فقط إلى أخطاء يده، لا تفعلوا أكثر من ذلك.

- نعم سيدي.

كانت لحظة بؤس عظيمة، فالعامل الذي دق المسمارين وعلق هاتين اللوحتين، قد يكون حتى أمياً، وفقيراً إلى الدرجة التي يصبح فيها الفقر تسلية وعادة يومية، عامل قد يعرف الابتلاء ولكنَّ ابتلاءه الخاص ـ ابتلاءه البعيد عن الطموحات وما فوقها أو تحتها، أو يمشي من حولها.. سيجده حيدر ضريس الذي يستطيع إيجاد نملة في جحر إن أراد.. وقد لا يعود إلى أهله مرة أخرى بالرغم من أن التعليمات لا تقضي بذلك.

استلمتني مشاعر مؤلمة، أردت خروج الرئيس حتى أتألم بها وحدي، وتذكرت أنني داخل بؤرة الظلام أيضاً.. ومن الممكن جداً أن مئات البائسين التحفوا البؤس عن طريقي.. لقد عيّنت سليمان مسؤولاً عندي، والآن أفكر بجدية كبيرة، أن سليمان أيضاً قد يكون أداة بؤس.. أداة وعرة.

سنذهب.. سنذهب إلى قضايا الشعب التي تنتظرنا يا حداد.. لا بأس.. لا بأس عليك، ونأمل رؤيتك في اجتماع المجلس القادم.. لنسمع رأيك في قرارنا الذي سيصدر قريباً، بفرض رسوم على الأقدام الماهرة للاعبي كرة القدم، والطبخ الجيد لربات البيوت البارعات. بالمناسبة كيف حال حرمكم إليزابيث؟

- موناليزا سيدي الرئيس.

- آه.. موناليزا. الثانية. بالمناسبة، هل تظن أن ابتسامتها فعلاً غامضة؟ أنا أراها ابتسامة فجور وشهوة، لا أكثر..

- زوجتي؟

سألت بتردُّد واهتزاز..

- اللوحة يا حداد.. لم نرَ ابتسامة زوجتك بعد..

ضحك، وكانت من المرات القليلة، التي أراه يضحك فيها، وضحك الجميع بمن فيهم أنا صاحب الشأن المضحك.

لا بد أن ضحكاتهم كانت مثل ضحكته ساخرة وجارحة، ومؤلمة، لا بد أنها كانت سكيناً، بعكس ضحكتي التي كانت كلها استياء، على الأقل بالنسبة لي.. لكن لا بأس.. سيذهب ولم يلحظ أي انبعاج في بطني يؤكد وجود كيس أو غيره.

كان ثمة مصور لا بد يتبع للتلفزيون الوطني، قد التقط الكثير من الأحداث، واستلم ضريس منه الكاميرا، التي سيخضع

تسجيلها لاعتداءات شتى قبل أن تبث في نشرة الأخبار المسائية.

عند الباب التفت:

- بالمناسبة، دعهم يُعدِّلوا لك كيس البول جيداً على بطنك يا معالي الوزير. منظره ليس جذاباً للزوار.

إذن انتبه، لا فائدة.. ولكن لا بأس أيضاً.

الآن انقشع الهرج والمرج.

انقشعت السلطة الكبرى، وبقيت سلطتي الصغرى التي يسيطر عليها المرض. يسيطر الضعف.. الوهن، كنت أحس بأنني لست ضعيفاً، بالعكس عندي طاقة فعالة.. هذا على المستوى النظري. لكن فعلياً، وما دام يوجد جسم غريب داخل جسدي، ويساعدني في إحدى الوظائف الحيوية الهامة، أنا ضعيف.. ضعيف جداً.

لا أود التفكير بعمق.. لا أود مبيت ليلة أخرى هنا.. لا أود أن تسقطني العلل، وأنا فتى أحلام أول لفتاة غضة في العشرين.. لا أريد أن يلهو متطرف يساري بإحدى غددي الذكورية، وينتزعها في إجراء ربما أموت فيه. باختصار شديد، كنت أود العودة إلى لحظة خروجي من قاعة الراحل أحمد بعد أن افتتحت معرض الخربشات لعدد من المغمورين، وبالتحديد، اللحظة التي باغتني فيها صوت ناعم.. وداعم إلى أقصى حد.

أحبك بجنون.. فتى أحلامي.

قضيتُ ما تبقى من النهار وحيداً، لم تعد ليز بعد، ولم يفارق بكَّار وقفته المتخشّبة، التي عاد ليتخذها بعد أن ذهب الرئيس، كان يطلّ علي بين الحين والآخر، يمنحني نظرة، أو يهمس بشيء لا أسمعه، واستأذن دقائق فقط، ذهب فيها إلى حوش المستشفى، أحضر شطيرتي فول من سيدة تبيع الشطائر هناك، اتخذ وقفته المتخشبة، وهو يأكل.. وحين عادت ليز في آخر اليوم ومعها عدد اليوم من الصحيفتين الوحيدتين بالبلاد، وشيء من حلوى الحلقوم التي ما زلت أستمتع بمضغِها، وأقدر طعمها جيداً إلى اليوم، بدا لي أنني شختُ، ولم أعد بتلك اللهفة القديمة، حين أعثر على ما أحبه.

أردت أن أقول لليز: ابتسمي، لأرى ابتسامتك وأقيّمها، إن كانت ابتسامة غموض ساحر أم فجور وشهوة؟ ولكني لم أقل شيئاً.

أول مرة التقيتُ فيها بالفريق علي فتح الله، أو الفريق علي الهباش، كما سمّى نفسه بعد ذلك، ولم يكن اللقب عالقاً به من قبل، كان أواخر الخمسينيات أو أوائل الستينيات، لم أعد أذكر بالتحديد.

كان ولداً نحيفاً، أصفر البشرة، ويبدو لي في كل مرة أشاهده فيها، أطول أو أقصر قليلاً من المرة السابقة، كأنه يطول ويقصر بتحكم يملكه.

كان يعشق الركض، ورائحة المطر، والسباحة في النهر، إن عثر على فرصة، كما كان يردد دائماً. وقد تخرج لتوه تلك الأيام، من المدرسة العسكرية، واستلم وظيفة عادية في أحد الأسلحة التابعة للجيش الوطني، لعله سلاح الهندسة أو سلاح المشاة، أو الإشارة، وكلها في النهاية كتائب شكلت بأفراد أعدوا للحرب، إن وقعت، والدفاع عن الوطن، إن احتاج إلى دفاع، وأعدوا أنفسهم للانقضاض على الحكومات، إن شموا رائحة ضعفها.

كان يأتي راكضاً من حي اسمه "لقمة العيش"، أقرب للعشوائية، وُلد فيه وتربى، وقد ارتبط بعلاقة عاطفية نادرة في ذلك الوقت، مع فتاة اسمها "أنفاس"، كانت من سكان حيّنا.. حي حفرة، ولا أعرف أين صادفها؟ ومتى اشتعلت بينهما قصة الحب تلك؟ والمرأة كما ذكرت، كانت عاطفة مغلقة، ودرباً غير ممهّد

ليطرق في أي وقت، ومن المفترض أن لا تضحك أو تبتسم، أو تتثاءب، أو تغمض عينيها وتفتحهما، إلا بإذن من سيف ما، قريب من عنقها. وقد عرفت بيوتاً كان ذكورها جلادين، ولا يسمحون حتى بالأحلام، أن تتكون في ليالي الفتيات. بالطبع كانت ثمة استثناءات، ثمة عواطف مشتعلة في الخفاء، أجساد تلتقي وتفترق، في الخفاء، والدنيا كلها بخيرها وآثامها، منسوخة بحوادثها في الخفاء.

كنت أشاهد الفريق من حين لآخر، يأتي راكضاً من حي: لقمة العيش، وبيده أكياس من الورق لا بد تحوي شبعاً أو جوعاً لا أدري بالتحديد؟ يتحاوم حول بيت آل أنفاس الواقع في منتصف الحي، وغالباً يظفر بنظرة أو ابتسامة، أو دمعة مغوية، تأتيه من خلف الباب الموارب، وأحياناً في أول المساء، وحين تختفي الشمس، ينحشر خلف الباب، لينال أكثر من ذلك.

كنت حداداً في ورشتي الخاصة، تلك الأيام، ومتزوجاً من ليز جعفر، وأقضي ساعات كثيرة في عملي، وساعات أخرى بجانب ليز الحبيبة، الممسكة بكياني كله، لكن عصابة من أبناء الحي، تشكلت، بدافع التسلية، وقضاء وقت لا بأس به وسط الشر والظلام، عرف أفرادها بأمر الملازم علي فتح الله، عرفوا سرّ ركضه المتواصل إلى حيّنا، وكيف يتذوق ''أنفاس'' التي كانت فاتنة من فاتنات الأحياء الفقيرة، النادرات، ولم تسمح هي نفسها حتى من دون سيف ولا رقابة، لأحد في الحي، بالاقتراب من فتنتها قط.

أخبرني أعضاء عصابة حي حفرة، وقد سمّوا أنفسهم عصابة: ''جذابون''، بأمر الملازم، ولأنني من سكان الحي، وبالرغم من أنني لم أتفاعل مع فتنة أنفاس سلباً أو إيجاباً، ولا أذكر أنني رأيتها حتى، أو اشتبهت في أنني رأيتها، إلا أنني لم أعترض حين طرح العقاب الذي كان يطرح في تلك المناسبات عادة، أن يقبض على الغريب المتطفل، ويضرب بقسوة، إلى مرحلة أقرب إلى الموت، ثم يلقى في خلاء بعيد، ولا تأتي سيرته على لسان أحد، إن عاش أو مات. لكن ذلك لم يحدث، برغم الخطة التي وضعت، وعصي الخيزران التي نجرت، وأسياخ الحديد التي تمت استعارتها من ورشتي، فقد كان الملازم النحيف، الذي يبدو ولداً أصفر، واسع العينين، قوياً، وماكراً في القتال، وانتهى الأمر بإصابات متباينة تعرض لها أفراد عصابة ''جذابون''، ونفض العسكري ثيابه، الملوثة بالغبار والدم، وطرق باب بيت حبيبته، متقدماً لأهلها بجدية كبيرة، لكن والدها أبى.. وبسبب غاية في الغرابة، عمّمه على الناس كلهم، وهو أن علي فتح الله، العسكري الغريب عن الحي، كان قميصه مفتوحاً وهو يخاطبه طالباً الفتاة، والحقيقة أن قميصه لم يكن مفتوحاً بدافع الصعلكة، وقلة الذوق وإنما قطعت أزراره حدة العراك.

بعد أيام أعاد العسكري الطلب مرة أخرى، وهذه المرة اعتذر الوالد بسبب أن الرجل طرق الباب بيده اليسرى، كما أخبره ولد صغير، كان يلعب في الشارع، وشاهد اليد التي طرقت،

وهذا مكروه، والحقيقة لم يتعمد الملازم ذلك، لكنه كان أيسر، والأيسر، يستخدم اليد التي خلقت لاستخدامها عنده.

بعد أيام أخرى أعاد الطلب، وكان والدها مهتاجاً هذه المرة، أكد للعسكري الغريب أنه يشم رائحة نشادر من حوله، وعالقة فيه، وتلك الرائحة تعني أن الغريب تبول واقفاً في زقاق ما، قبل قدومه. وهذه كانت حقيقة، فقد أكد له الفريق- الملازم آنذاك أنه تبول واقفاً في أول الحي، وسيتبول واقفاً وجالساً، وزاحفاً على يديه وركبتيه، في بيته، وقد يقتله بيده إن لم يغلق بابه بسرعة، وقد يقفز عبر الحائط ويقتله، إن أغلق الباب، وربما يستخدم سكيناً أيضاً لأن الآباء السخفاء أمثاله، لا بد من ذبحهم في النهاية.

تلك الأمسية التي كانت أمسية رعب في حي حفرة، وشهدتُ جانباً منها، بينما حكى لي بعض السكان ما لم أحضره، انتهت نهاية خير، ليس صلحاً ولا شيئاً قريباً من الصلح، ولكن انسحاباً أبدياً من الفريق، من لظى حي حفرة وعشق أنفاس التي كانت حلوة الطعم، وسط بيئة مُرّة، كما عبر وهو يبصق على الأرض مراراً، ويركض خارجاً.

أنفاس لم تتزوج قط، كما أعتقد، كان عشاقها يتناقصون سنة بعد أخرى، وفي منتصف الستينيات، كانت ما تزال زهرة، لكن طعمها ليس بصورته القديمة... طعم أقل حلاوة ومحفوف بالمخاطر أكثر، كبر إخوتها واستلموا لجام كبحها من والدهم، ولم يعد لها أي صوت أو مجرد نفس في حي حفرة، وحقيقة لا

أعرف ماذا حدث لها، ربما تزوجت من أحد ماء وغادرت الحي إلى الأبد، ربما تزوجت من فاعل خير أو قاطع طريق، وبقيت في الحي نكرة، وربما ـ وهذا ما كان يتبادر إلى ذهني دائماً ـ أنها فرت لملاقاة الحبيب القديم، في بقعة ما، وازدهرت علاقتها به من جديد، لكني لم أعثر على ما يثبت خواطري تلك، على العكس، كان هناك ما ينفيها..

كان الملازم قد ترقى إلى رتب عدة، في تلك السنوات، وبدا صارماً جداً حين أشاهده، وقد غدا من زبائن ورشتنا، ومغرماً بمقاعد الحديد الصغيرة التي لم أعرف أبداً لِمَ يشتريها، وأين يضعها؟

لم يكن يبدو عليه أي أثر لمغامرته القديمة مع أنفاس، ولا أي أثر لمغامرة حديثة معها، ولا أي أثر حتى لأي علاقة منضبطة كانت أو غير منضبطة مع امرأة. كان يبدو نظيفاً من ألم المرأة، نظيفاً من السهر بكاءً لها أو عليها، وبعيداً جداً عن مفردات مثل: العفة، والسحر، والدلال، ووجه القمر، والزهرة اليانعة، والملكة والأميرة، والميساء، وكل تلك المفردات الملتوية، المفصلة خصيصاً لتعتنقها المرأة، أو تبصق عليها. كان كأنه ألغى المرأة بعناية فائقة من النظام اليومي لحياته كعسكري جامد، يتملّق مجد الحرب في المعارك، وربما مجد السلطة، في المدن التي يسكنها، بزيه الكاكي الكامل. كان يأتي إلى الورشة في كل شهر تقريباً، يشتري مقعدين أو ثلاثة من الحديد، يضعها على ظهر عربة من عربات الكارو، ويذهب.. لم يكن يدخن السجائر، التي كانت موضة

منتشرة في ذلك الوقت، لم يكن يسفُّ التنباك المنتشر أيضاً، ولا شممتُ في هيبته وسعاله الأحياني رائحة خمر بلدي أو من خارج البلد. باختصار شديد، كنت أراه غير قابل ليصبح صديقاً أو حبيباً لأحد على الإطلاق.

في إحدى المرات وبعد تردُّد شديد سألته:

– هل ما زلت تذكر أنفاس يا سيدي العقيد؟

بدا لي صادقاً جداً حين اندهش، وحين اندهش أكثر، كأني سألته عن ذكرى له مع غوريلا في غابة استوائية، أو رهبان بوذيين يسجدون عرايا في هضبة التبت. مد يده إلى خصره مرات، وأعادها، رفع قبضته اليسرى، ضرب بها الهواء، ضربات متتابعة:

– هل هي امرأة يا جمعة؟ إن كانت امرأة، فلا أظنني أذكرها أبداً، وإن كانت سلاحاً من أسلحة الجيش، فنعم أذكره بكل تأكيد.

-١٥-

في أحد الأيام، وكان يوم أحد كما أذكر، وقد استأذن مجوك، أحد عمال ورشتي من الجنوبيين، في الذهاب للقداس، في كنيسة مجاورة، كما يفعل أسبوعياً، ووزع عاملٌ آخر بطاقات دعوة لزواجه الذي سيُقام الخميس القادم، زارني العقيد علي فتح الله. كان يرتدي الزي العسكري، ويركب سيارة قديمة من طراز لاندروفر الإنجليزية، بدت متربة، وكانت مخدوشة في أكثر من موضع. شاهدته من مكتبي الداخلي، في الورشة، وهو ركن ضيق قريب من الباب، يتوقف وبالكاد يتفادى دجاجة شقية، كانت تتقافز أمام عربته. كان العقيد قد انتقل للعمل في حرس الحدود كما سمعتُ، ولم أرَهُ منذ أكثر من عامين، والآن يأتي بلا مقدمات، وقطعاً عادت معه تلك العادة القديمة، في حب مقاعد الحديد، وسيطلب عدداً منها، وقطعاً سيعود فضولي القديم الذي لم أستطع إشباعه قط، في معرفة سبب تلك الطلبات المتكررة لمقاعد الحديد، شيء ما كان يمنعني من سؤاله في كل مرة.

نهضت من جلستي، وأغلقت الدفتر الكبير الذي كنت أدوِّن فيه بعض الملاحظات اليومية البعيدة عن العمل، وأحياناً أكتب خواطر أو حكماً أصادفها هنا وهناك، أو أسجل طلبات من ليز، تزودني بها حين أخرج من البيت، وأخشى نسيانها. وكنت اشتريت ذلك الدفتر، لهذه الأغراض المتنوعة، وأتسلى بالخربشة عليه، كلما كنت في الورشة التي لا تحتاج لإشراف كبير، وكل من يعمل فيها يعرف تماماً ما يعمله.

في فترة من الفترات، كنت أحاول أن أكتب الأغنية، من دون أن أدري، إن كنت موهوباً في كتابتها أم لا؟ أستدعي مفردات ليز، التي ما زالت تأسرني، برغم سنوات الزواج الطويلة، وأن تفاصيلها اختلفت نوعاً ما، عن تفاصيل الفتاة الضاحكة، التي جاءت ذات يوم، تحمل لوحة مشوهة. أكتب: عيناك.. أكتب: قلبك النبيل.. أكتب: ضميني، أكتب سخافات بلا معنى، وأقرؤُها لنفسي، فيما بعد لأمصمص شفتي بقرف، وأكاد أقسم أن لا أعود لكتابة الأغنية مرة أخرى، لكني أعود. ولسوء حظي، فقد اكتشف أحد المغنين المخضرمين دفتري وما يحويه من قبح شعري، اختطفه، من بين يدي، ذهب به، وأعاده بعد يومين، ليقول لي: جيّد يا جمعة.. لقد نجحت في كتابة زوجتك الأربعينية كما هي، لكنك لم تكتب أغنية طازجة، يحبها هذا الجيل.. أعد المحاولة وسأعود إليك.

اكتأبتُ في ذلك اليوم، لكني أعدت المحاولة، أعدت المحاولات تباعاً، ولا حدث جديد في أغنياتي البلهاء، ولا عاد المغني، المتفلسف مرة أخرى حتى لاستلام طاولاته التي طلبها بإلحاح، ودفع عربوناً فذاً من أجل أن نصنعها.

كان العقيد بنفس صرامته، أو لعلها أزيد قليلاً هذه المرة، وانتبهتُ إلى أنه يحمل ورقة مطوية، ويضع قلماً من الحبر الجاف، ماركة بيج، خلف أذنه اليسرى، تماماً كالنجارين، اقترب مني، حيّاني بخشونة، وطلب مني أن أقف معتدلاً، وصامتاً. وقفت

معتدلاً وصامتاً كما طلب مني، والحقيقة، كان الطلب أمراً فجّاً، لم يُراعِ أنني خارج المؤسسة العسكرية، وليس من المفترض أن أتلقى أوامر.

أخرج من جيب سرواله الكاكي متراً قماشياً، رخواً، مما يستخدمه الخياطون. فرَده على جسدي، قاس طولي وانبعاج صدري وخصري، ومؤخرتي، ودوَّن تلك القياسات على الورقة التي يحملها. هممت أن أسأله، ووجدت الذي تكون في حلقي ضحكة، وليس سؤالاً.. ضحكت فعلاً، وأنا أشاهد خياطاً برتبة عقيد، ينحني ويعتدل في منتصف ورشتي، وقد ترك بعض العمال أشغالهم، وابتدؤوا يتابعون المشهد من بعيد. بعد ذلك جلس العقيد على أحد المقاعد، وظللت واقفاً، أتأمله، ويجتهد عقلي لمحاولة إيجاد تفسير لما يفعله. قلتُ فجأة:

- ماذا يحدث سيادة العقيد؟

لم يرد، وضع الورقة أمام عينيه، أخرج من جيبه نظارة صغيرة، ورقيقة الإطار، وضعها على عينيه، واتجه بالعينين صوب الورقة. سأل:

- هل تعرف فيودور دوستوفسكي؟

قلت، ولا أخفي اندهاشي: نعم، أديب روسي قديم.

- جيد.. وسمعت بالعلمونولوجيا؟

كانت هذه صعبة، لكن ولحسن الحظ، لم أكن جاهلاً بالسؤال، فمنذ عدة أيام فقط، وبمصادفة بحتة، التقيت بصديق قبطي، اسمه ألبيرت، قال بأنه يدرس فلسفة العلمونولوجيا، بعمق، ومن المحتمل أنه سيعتنقها في النهاية، لخَّصها لي في عشر كلمات، واستخدمتها الآن، لأردَّ على سؤال العقيد.

- جيد، هل تعجبك موسيقى الكنتري؟

هذه لم أسمع بها وصمت.

- جيد.. قل لي هل يوجد في أفريقيا كلها، شاعر، يستحق عناء أن يسمع به حداد مثلك؟

سؤال استفزازي، ويعرف العقيد أنني لست حداداً أمياً، وأنني تعلمت وأعرف أشياء ربما هو نفسه لا يعرفها، وقد تدرب عسكرياً فقط.

قلت: نعم، ليوبولد سنجور.

- "انجُ سعد فقد هلك سعيد". هل تعتبر هذه الجملة مهمة، بغض النظر عن قائلها، إن كان الحجاج بن يوسف الثقفي، أو كعب بن ثعلبة، أو مريم بنت جابر، بائعة الكسرة؟

لا بد أنه يمزح، وإن كان لا أثر لمزاح في تصلده، وصرامته المطلقة. الحجاج بن يوسف أعرفه طبعاً.. كعب بن ثعلبة لم أسمع به من قبل، وإن كان السماع به ليس أمراً صعباً كما أتوقع، ومريم

بنت جابر، كانت أشهر بائعة لكسرة الذرة في السوق الكبير، واشتهرت بأقوال كثيرة، بعضها حكم، وبعضها مُنافٍ للآداب العامة. لا بأس.. سأرد:

– نعم سيدي.. مهمة في رأيي، ويمكننا اعتبارها جملة تحذير رئيسة، مثل جرس الإنذار الحديث.

– جيد جداً.

بدا أن العقيد انشرح قليلاً، نادى أحد العمال القريبين، أعطاه قرشين، من دون أن يوضح السبب.

– "وراء كل عظيم امرأة"، إذن لماذا يعرف الناس وليام شكسبير، ولا يعرفون آن هاثاواي؟

لم أتردد، أجبتُ على الفور، وبدا لي امتحان العقيد، الذي لا أعرف دوافعه، ممتعاً إلى حد ما:

احتمالان سيدي: إما أن تكون وراءه فعلاً، وغطى ظهورها بأنانية مفرطة، أو ضخامة معنوية مقرفة، وإما أن لا يكون عظيماً على الإطلاق.

– جيد.. أتفق معك، ولكن فليبقَ اتفاقنا سراً بيننا، والآن، هل تستطيع أن تتحدث بطلاقة إذا وضعتك على منبر؟ بمعنى: هل تستطيع أن تغش الجمهور المحتشد لسماع خطبة تختص بأكل عيشه، وتلهيه بخطبة ماكرة؟

فكرت قليلاً، هذا السؤال يخفي طعماً ساماً، وأياً كان مقصد العقيد من هذا التحقيق الغريب، فقد قررتُ أن أراوغ:

- نعم سيدي، أستطيع مثلاً أن أتحدث عن وفرة حبوب الذرة، أمام مظاهرة غاضبة، بسبب شح حبوب القمح.. أستطيع أن أفعل أشياء تافهة كثيرة.

- مثل ماذا؟

التقط العقيد جملتي الأخيرة، واخترع منها سؤالاً مباغتاً.

ترددت، وحقيقة، لم أعتدْ على فعل التوافه، إلا إذا كنت مضطراً، وحقيقة أخرى أنني لا أعرف مقياساً واحداً للتوافه، ففي حين يعتبر البعض لمس فتاة في صدرها، عنوة، شيئاً تافهاً، يعتبره اللامسون رجولة، وفي حين يعتبر البعض المغنين صعاليك كباراً، يعتبرهم البعض فنانين عِظاماً. وكان يوجد قريبا من حي حفرة، ضريح، دُفن فيه شخص مجهول، كثيرون يزورونه للتبرك بوصفه ضريح شيخ، وكثيرون يزورونه لقضاء الحاجة، بوصفه مرحاضاً عاماً. قلت:

- بحسب قناعتي سيدي، وأنا متأكد أنها تختلف عن قناعتكم.

نزع العقيد نظارته عن عينيه، طوى ورقته وأعادها إلى جيبه مرة أخرى، وقبل أن يستدير ويمضي، قلت في توتر، وأحس أنني توترتُ فعلاً:

- لماذا كل هذا سيادة العقيد؟

رد مباشرة، هذه المرة:

- سأقوم بانقلاب عسكري، أو لنُسمِّهِ ثورة، صباح الجمعة القادم، وكنت أبحث عن وزير للثقافة، واختبرت أشخاصاً عدة كنتَ أنت أفضلهم. ستصلك بدلتك التي ستحلف بها القسم أمامي، في حينه.. إلى اللقاء معالي الوزير.

لم يضحك هو لتلك الطرفة التي أطلقها، لكني ضحكتُ حتى دمعت عيناي، فلم أكن أعرف أن علي فتح الله بخفة الدم هذه، ضربتُه على كتفه وأنا أضحك، ضربتُه مرات عدة، وأضحك، ومضى إلى عربته وأدارها، وذهب، وأنا أضحك. لم نسمع من قبل بانقلاب عسكري، يعلن عنه بهذه البساطة، ومنذ أن استقلت البلاد واستلمت السلطة حكومة مدنية، مكونة من النخبة، لم تتوقف محاولات الانقلاب التي نجح بعضها وأخفق بعضها الآخر، ولا نعرف عنها شيئاً إلا يوم أن تدوي المارشات العسكرية، ويؤجج حظر التجول، ويجلس البعض على كراسي السلطة، أو يذهبون إلى المشانق وساحات الرمي بالرصاص. إما أن يكون علي فتح الله ساخراً جداً، وإما أن يكون قد جن، وفي كلتا الحالتين قد يسبب لي مشكلة، لا أريدها.

لم أخبر ليز بحكاية العقيد تلك، وهي أصلاً لا تعرف من هو العقيد ولم تسمع به قط. لم أخبرها بتلك الضحكات المذهلة التي

ارتجَّ بها جسدي كله، وتلك الخبطات الساخرة، التي كررتها على كتفه وظهره، ولم تغير شيئاً من صرامته. هناك أشياء تحدث لنا، ونحملها إلى البيت، وأشياء تحدث وندفنها في مكان حدوثها، وأشياء تحدث، ونحمل إلى البيوت أجزاء صغيرة أو كبيرة منها، وندفن ما تبقى في مكان الحدوث. كنتُ ما زلتُ أحس بودٍّ، أو ربما احترام ما، تجاه العقيد فتح الله، برغم نيتي أن أصاحبه بحذر مستقبلاً، بسبب ما قد يجره علي وعلى الورشة من أسئلة لا أملك أجوبتها، وفي عهد حكم متجبر، وقاسٍ، ومعروف أنه يسائل حتى الموتى إن شك في تمردهم على الموت، والأشجار إن شك في منحها الظل لمعارض. نعم كان الزمن زمن قسوة، والحقيقة كل الأزمان التي عشتها وأعيشها إلى الآن، أزمان قسوة، دائماً ما يوجد ظلم، ويوجد ظلم ثانٍ وثالث ورابع، وعاشر، وربما يوجد عدل هزيل، بلا مروءة، لأننا لم نسمع بكلمة العدل تتردد إلا نادراً.

عدتُ أتسلى بدفتري وتخاريفه، بعد أن ذهب العقيد، وفوجئت بأنني أكتب مرثية للجمال بلا مبرر، لم تكن مرثية جيدة بالطبع، ولكن شخبطات كثيرة، قد يضحك أحدهم، أو يبكي بحرقة، حين يطالعها.. وجدت نفسي أستخدم لغة ليست ضارة ولا مؤذية للآذان هذه المرة، وخفت أن أكون امتلكتُ موهبة كتابة الشعر.. وهذا شيء لا أريده في الوقت الحاضر، ولا أي وقت آخر. ألقيت الدفتر بعيداً، أو لعلي مزقته، لا أذكر

بالتحديد، وأظنها كانت المرة الأخيرة التي أستخدم فيها دفتراً بغرض آخر غير أعمال الورشة، وما يتبعها من مؤجل وديون.

زارني جار يملك ورشة للنجارة، ولم تكن أعماله مزدهرة، وكان شاهد سيادة العقيد، يدخل عندي ويخرج، ولا يحمل كرسياً من الحديد كما يفعل دائماً.. قال:

- ماذا به؟

رددت وأضحك بحبالي الصوتية كلها: يدبر لانقلاب عسكري.

ضحك الجار، ضحك حتى دمعت عيناه، ودمع أنفه أيضاً. قال: إن عاد وردَّد حديثه ذلك، سأعتبره غريمي. أنا أحب الحكومة. قلت وأحس بشيء من عدم الارتياح، أعرفه جيداً، من نغزة طفيفة في صدري، تأتي وتذهب: ومن الذي لا يحب بلاده؟

- الحكومة، وليس البلاد.

كرر الجار جملته، وذهب، وأحس بعدم الارتياح يتزايد.

فجر الجمعة، كنتُ أحلم بطريقة متماسكة، أحلم بأنني أتجول في مزرعة شاسعة، وهناك ساقية تسقي، ومحراث ينجر الأرض بنعومة، وثمة عصافير ودواب تغني، وخاطبتني شتلة قمح خضراء، نبتت لتوها، قائلة: هل تحبني يا جمعة؟

قلت: نعم.

- هل ستقبلني؟

ابتسمت، أمسكت بها لأقبلها، واستيقظت.

كانت ليز تهزني بقوة، وهي تصرخ: استيقظ يا جمعة... استيقظ.

فتحت عيني، ولا أستطيع أن أفتحهما جيداً.. كان لساني تلك اللحظة أثقل لسان في الوجود كله، وأنا أسألها: ماذا بك؟ أنت مريضة؟ صداع الشقيقة؟

كانت ليز مصابة بصداع الشقيقة، ودائماً ما يحتشد ويأتي بعبطه كله، حين أرقد مسترخياً، أو أغرق في نعاس عظيم.

- لا.. انقلاب عسكري..

قالتها بقوة ومتانة، والناس عموماً، ومهما بلغت رقتهم، وابتعادهم عن جريرة العنف، لا يستطيعون استخدام بعض الألفاظ إلا بنفس عنفها الواقعي، لن يقول أحد: قتل قاتل قتيل، برقة، لن يقول: استخدم القاتل سيفاً أو حربة، أو سكيناً، وهو يتهته بصوته الخافت، الرقيق، ولن تقول ليز الآن: انقلاب عسكري، إلا بطريقة الانقلاب نفسها، حيث ستجعلني أهب من حلم المزرعة الخضراء، راكضاً في البيت، لأي هدف لا أعرف؟

كان الراديو الحديث من ماركة فيليبس الذي نملكه، ويبث أناشيد الحماس المزعجة، الآن، موجوداً بقربي، على طاولة مجاورة،

كان صوت مذيع الأخبار، المصادر بلا شك، بواسطة سلاح مصوب إلى رأسه، مرتعشاً، ويردِّد بلا توقف خبراً واحداً، غداً نشرة أخبار كاملة، في ذلك الصباح:

العقيد علي فتح الله الهباش، يقرأ عليكم بياناً هاماً بعد قليل، فترقبوه.

خمس أو سبع دقائق مضت، وقد توحدت مع جملة المذيع المكررة، ثم أمسكت ليز من يديها، نظرت في عينيها عميقاً وأنا أقول، بجدية كبيرة:

- للأسف الشديد عزيزتي، أنا داخل هذا الانقلاب.

- داخله؟ داخله يا جمعة؟

سألت باستغراب، ومن حقها أن تسأل بمئة استغراب، وألف دهشة، وأنا لست عسكرياً أولاً، ولا أملك أي طموح سياسي، ثانياً، ولا يؤهلني أي شيء لأصبح حتى مجرد متفرج على أحداث انقلاب عسكري، أطاح بالسلطة الحاكمة.

- داخله يا جمعة؟

كانت يداها تحيطان برأسها، وبدا كأن صداع الشقيقة يتحدث وليس ليز المندهشة.

- اسمعيني..

حكيت لها باختصار شديد، قصة غريبة، حدثت وقائعها

يوم الأحد الماضي، في ورشة راضي للحدادة، في وسط العاصمة: الطرح المجنون المباغت لعقيد في الجيش، كان غائباً وعاد. قياسات البدلة، التي استخدم فيها متراً من القماش، ومن المفترض أن يلبسها الوزير، أثناء أداء القسم، الاختبار المهين لقدراتي المعرفية والحياتية، والذي غالباً اجتزته بنجاح، وأخيراً قلت لها بكل جدية، وأحاول أن أبدو جامداً: لقد أصبحتُ وزيراً للثقافة، هل يسعدك ذلك؟

ذلك الصباح الذي بدأت شمسه تتوكأ خارجة من كهفها، بكينا أنا وليز. نعم بكينا بمرارة ودموع ثرية وحقيقية، احتضنا بعضنا زمناً، واتحدت دموعنا ونبكي، شخصياً كنت أبكي أمي، وأخي صابر، وأختي فاطمة، والأجنة الضائعة التي لم تثمر بها أحمال ليز المتعاقبة، أيضاً بكيت على نفسي احتياطاً، فقد تتحد قوى النظام الساقط، وتعيد نظامها، كما يحدث أحياناً، ويضيع علي فتح الله، وأضيع معه، إن عُثر في حوزته على ورقة تحوي أسماء وزرائه. كانت ثمة ثغرة، وكان علي أن أجلج منها لأبتسم أو أضحك، ذلك أن العقيد ربما كان يمازحني ولم يضعني وزيراً.. لا.. لم أكن متأكداً من أن تلك الثغرة فيها أمل.

بالنسبة لليز لا أعرف سبب بكائها بالتحديد، لكني أكاد أجزم أن ثلاثة أرباعه بكاء فرح كونها حرم وزير صعد من ورش الحدادة إلى تل سلطوي.. كانت وزارتي ستتيح لها نهجاً طالما تمنته، أن تكون بروتوكولية وراقية، وصاحبة إتيكت صارم، لم يكن

شح المال مشاركاً في عدم تحقق أمنياتها تلك، وعندي ثروات جيدة، وانتقلت بليز من بيت حي حفرة القديم، إلى بيت آخر في حي ألطف وبعيد عن الوقاحة، لكن المال ليس مثل السلطة، بأي حال من الأحوال.

توقفنا عن البكاء حين انتشر صوت العقيد أخيراً: كان صوته بالفعل، وإن كانت ثمة رائحة خوف من خلفه، رائحة لهاث، وأكاد أجزم أن نزف العرق في جسد العقيد، قد استفحل ووصل حتى نياشينه. الانقلاب عمل مدهش، وفذ، ولا ينفذه سوى مجانين، وبرغم ذلك، حتى المجانين يرتعدون، ويعتلي حواسهم الخوف، في أوقات ما.

كانت الكلمة قصيرة، وتتكرر مفرداتها، باستمرار، وتكاد تشبه تلك القصة المعروفة، عن صف النمل المتجمهر، أمام مخزن للحبوب، تدخله نملة، تأخذ حبة وتخرج، تدخل أخرى، تأخذ حبة وتخرج، تدخل ثالثة، إلى ما لا نهاية.

الخلاصة: الفساد، الظلم، إهدار الموارد.

الفساد الظلم، إهدار الموارد.

الفساد، الظلم، إهدار الموارد.

الفساد الظلم، إهدار الموارد.

-١٦-

سبعة أيام قضيتها في المستشفى، وأصابتني بكآبة مرة. لم أعد أتخيل الجمال ولا المتعة، ولم أعد أتذكر حتى استرخاءاتي الضرورية، كشخص مترف في بيت مترف، أو تفاهاتي كسلطوي مزعج، يهتم بما يبقيه سلطوياً مزعجاً.

ومن أجل تدريب المثانة وحثها على استعادة وظيفتها القديمة في ضخ البول وليس استبقاءه حتى يضج، كان الدكتور ستالين بنفسه يأتي مرتين أو ثلاثاً يومياً.. يقوم بنزع القسطرة عن جسدي، ويحثني على الإسراع بإفراغ المثانة، حالما أحس برغبة في ذلك، ولو كانت بسيطة جداً. كان المشروع وأعني مشروع إعادة القديم إلى عهده، غير ناجح أبداً.. كان البول ما يزال محتبساً، وليس ثمة أمل في عودته للتدفق القديم، وفي اليوم الثامن وبعد أن ظلت القسطرة خمس ساعات بعيدة عن موضعها، وأخفقت محاولاتي في التخلص من السم الكئيب، قال الدكتور:

- معذرة معاليك، لا بد من استئصال غدة البروستات.. إنها تضغط على مجرى البول وتسدُّه، وتلك المحاولات التي كنا نجريها، كانت من أجلك أنت، لا من أجل قرارنا.. وحتى ترى بنفسك أنه لا حلّ آخر سوى الجراحة.

الجراحة؟

كلمة عنيفة بصراحة، ولطالما أوحت لي بكثير من الدم

المتضرج، والسكاكين المستلة، وصراعات مؤلمة، كلما سمعتُ بها.

كان ستالين سيجرحني وستؤلمني الجراحة، وطبعاً ثمة سكين سيُستخدم، قد يكون صغيراً نوعاً ما، لكنه سكين على أي حال، سكين يقود إلى الدم. لقد مات زوج موناليزا الحرباء، تاجر الأخشاب الثري، من نزف الدم، وفي جراحة بروستات، أقسم الجراح الذي أجراها، أنها كانت ناجحة وعادلة، ولن أحتاج لقسم ستالين بأن جراحته ستكون نظيفة، ومنزهة من الأخطاء، أعرف أنها ستكون كذلك، فقط توجد عشرات العثرات، المختبئة في الغيب لدحر تلك "الكذلك". بماذا سأرد على الطبيب؟

لو قلت.. لا .. لا تجرحني، أكون هنا، وهكذا بالقسطرة والكيس، ومسمى المرض، وغالباً بلا وزارة، وإلى الأبد.

ولو قلت: أنا مستعد.. هيا اجرحني.. يوجد خياران، أن أعود إلى مهامي، وزيراً، محترماً، بلا هواجس مرضية، في هذا الشأن على الأقل، أو أموت بسبب ما، من تلك الأسباب التي لا تعلن عن نفسها، إلا في لحظة نيتها القضاء على أحد.. وتصبح اثنتان من موناليزات جعفر، في عرف الأرامل بسبب بروستات لئيمة.

لم تكن ليز موجودة لاستشارتها، ولا كان في الغرفة هاتف لأحدثها، بالرغم من أنها من الغرف الفخمة الخاصة. كانت الهواتف نادرة، والشبكة القديمة التي دشنت بها خدمات الهاتف

في البلاد، منذ سنوات طويلة، لم تعد تتسع لأي إضافة جديدة. أذكر أننا ناقشنا تلك المسألة في اجتماع وزاري ذات يوم، وطلب وزير الاتصالات ميزانية كبرى لتأهيل الشبكة، أو إنشاء شبكة أخرى أحدث، ولم يحصل على شيء.

"البلاد تسير هكذا.. دعوها تسير هكذا"..

كانت هذه إحدى الجمل المفضلة عند الفريق فتح الله، الرئيس الحالي، وغالباً الرئيس الدائم للبلاد، إذا لم يحدث طارئ ما.. جملة فيها الكثير من العذوبة، وجمال الألفاظ، والحكم العميقة، كما يقول محللو خطابات الرئيس المرتزقة، وجملة مثبطة، وتافهة، وبلا معنى، وتشبه خطوات السكارى التي هي خطوة للأمام، وعشر للخلف، كما يقول معارضو نظام الحكم، وبالنسبة لي شخصياً، أعتبرها كدمة كبيرة وواضحة في وجه الشعب..

حسناً يا مستر ستالين، قلت وأحاول صنع ابتسامة لم أكن أملك خامات صنعها:

- موافق.. متى ستجرى الجراحة؟

ستالين تعرف على مكونات ابتسامتي وعرف بأنها ابتسامة مذعور.. هذا الطبيب جدير بالطب، ولا أعرف هل هو وحده من يملك خاصية تفسير غير المفسر، أو المفسر بغموض، أم كل الأطباء نابهون، ولماحون هكذا؟ ربما، وتذكرت أن الإنجليزي الذي كان يعالج ليز من النزيف المتكرر، وأخذ رحمها في النهاية،

كان نبيهاً أيضاً.. ويملك مفاتيح عدة، يستطيع أن يلج بها إلى النفوس المهزومة.

قال ستالين:

- أعد الابتسامة مرة أخرى معاليك، السابقة كانت مغشوشة.. مشوشة.. وفيها ذعر.

أعدتها، وأظنها كانت مطمئنة هذه المرة.. بعد يومين ستجرى الجراحة، وعلى الجميع أن يستعد. وحين أخبرت ليز في المساء وإثر عودتها من ميدان ركوب الخيل، حيث يتدرّب أيهم على الفروسية، ويحرز تقدماً، انفعلت بشدة.. لم تكن تريد سماع اسم البروستات ولا إجرامها، وأسكتُها بعنف حين ذكّرتها أولاً بأنها أجرت جراحة كبرى في زمن كان الطب فيه أبله بدرجة بعيدة، ولم تمت، وثانياً أن الدكتور ستالين يعرف حدوده جيداً، ولن يغامر بموت وزير، حتى لو كان ذلك، على طاولة عمليات، وثالثاً.. أين أيهم ابني وابنها المُتبنى هذا؟

كان يقترب من التاسعة، ولم أرَهُ عندي.. ولا مرة واحدة؟

هل أحضرته من الجوع، والتناحرات في الغرب، ومنحته اسمي، وبداية المستقبل ليتحول إلى شبح؟

هل سأل عني؟ هل يعلم أنني قد لا أعود إلى المنزل؟

ارتبكت ليز، ارتبكت فعلاً، لم تهتم بكل ما قلته قدر اهتمامها

بجملتي الأخيرة: قد لا أعود إلى البيت، بالرغم من تناقضها مع الجمل التي قبلها، وكانت بعيدة عن ذكر الموت.

إنها قطعاً الجملة الحقيقية التي لم أرد إخراجها، وخرجت وحدها في لحظة الهياج..

كثير من الكلمات تملك شخصيات خاصة بها.. ولا تستجيب للقهر، إن حاول المتحدث قهرها وإبعادها عن لسانه، كذلك الحالات التي تتضح معالمها، في شكل كلمات أو إشارات: الخوف مثلاً. شخصيته عظيمة ومتمردة، ويمكن أن يبرز حتى عند الفرسان، حين يريد أن يبرز.. الحزن شخصيته طاغية، الفرح متذبذب الشخصية، يمكن الانسياق له ويمكن قهره، وما حدث معي كان خوفاً طاغياً أظهرته الجملة الأخيرة.. ارتبكت ليز وبكت، وفي الغالب تذكرت زوج موناليزا الحرباء، وتركتها لكل ذلك.. بعد يومين سنعرف كلنا: أنا وهي والولد ابن الغرب: ضحية.. أي الاحتمالين سطا على رغبة الآخر:

وزير مبجل،

أم وزير ميت.

كان سليمان صافي قد زارني مرات عدة، أثناء تلك الأيام السبعة، أحياناً متأنقاً وأحياناً بقميص وسروال عاديين، كان يحمل أوراقاً دائماً، ويحصل على توقيعي دائماً، أدقق أحياناً في الورق قبل التوقيع ولا ألقي أي نظرة في أحيان كثيرة. لم يكن ذلك

بسبب المرض، وإنما نهج أنتهجُهُ مع سليمان، وأعرف أنه سيعود وينبهني إن كان الموضوع على درجة من الأهمية. في الأوراق التي عرضها علي في إحدى المرات، انتبهت إلى بند اسمه: علاوة إنجاز، سيحصل عليها سليمان حين أوقع، كانت علاوة جيدة، يحصل بموجبها الموظف الذي تمنح له على مبلغ جيد، يقترب حتى من مرتبه الرسمي. لم أكن سمعت بتلك العلاوة من قبل، واستفسرت عنها من سليمان، وأخرج لي خطاباً رسمياً، صادراً من المالية منذ يومين فقط، ويقضي بتفعيل علاوة الإنجاز، ومنحها لكل من أنجز في عمله.

ابتسمت بكآبة، كان مدير مكتبي يعرف ما لا أعرفه، وقام بتفعيل علاوة الإنجاز في حقه.

لكن ما الذي أنجزه سليمان ليحصل على العلاوة؟ مررت بذهني على سنوات خدمته الست عندي ولم يعترض طريق ذهني إنجاز كبير وواضح.

- ما مبرر حصولك على العلاوة يا سليمان؟ وضح لي لو سمحت.

- لا يوجد مبرر معاليك.

قال وشبح ابتسامة يتحاوم حول شفتيه ويوشك أن يفرهما.

- الأمر متروك لتقديركم.

وقعت علاوة الإنجاز لسليمان، ووقعت أوراقاً أخرى فيها إذونات لترميم قلاع مهدمة، ومزابل آيلة للسقوط، وأجرة عشاءات لأمسيات أقيمت بالفعل أو يزمع إقامتها.. أشياء كثيرة عند سليمان، ودائماً لديه أوراق ولديه غوامض ولديه ابتسامات لا أعرف تفسيرها في كثير من الأحيان.

قلت في إحدى زياراته، وأحاول أن أعيده ولو نظرياً إليَّ أيام التشرد، حين كان بعيداً.. وفاشلاً.. ومحبطاً:

– هل تتذكر حين التقينا أول مرة؟

رد؛ نعم معاليك، في لوقانو؟

– أين في لوقانو؟ محطة القطار؟ عربة التلفريك؟ المكتبة العامة؟ مجمع كاستيلو للمجوهرات؟ تلك الحديقة المزدهرة أعلى الجبل؟

– لا معاليك.. في مطعم تانجو.

حقيقة كان مطعم تانجو، من المطاعم المرتبة، تغديت فيه بصحبة وزيري ثقافة من بلدين شقيقين. كنا في مؤتمر في زيورخ، وعرجنا على لوقانو.. قيل فيها شمس وهواء منعش، وبحيرة يمكن أن نراقب فيها الحياة الممتعة، ونعشقها. كان كل شيء موزوناً بالفعل، ساحة ربابليكا، بمقاهيها ومطاعمها المصممة بوعي، وموسيقى الراديو الراقصة المنبعثة من كل مكان، والفرق الغنائية التي تتشنج في منتصف المكان، والطعم المتميز للحياة، الذي

نصفه إيطالي ونصفه ألماني. كانت في مطعم تانجو فتاة من لبنان، فتاة اسمها لينا أو ليانا أو لويزا، لم أعد أذكر، لكن سليمان يذكر بلا شك. كانت عيناها ضاحكتين، وكان صوتها يبدو متلهفاً، ولا أعرف متلهفاً لماذا، لكن هكذا بدا لي. كان يوجد سليمان بالطبع، وتوجد سيدة ذات وجه ألماني، ربما في أول السبعينيات أو منتصفها، لم تتحرك من أمام طاولة الحسابات منذ دخلنا، وحتى غادرنا، وقطعاً يوجد طباخون، في مكان خفي بالداخل، يحيلون خضراوات المواسم، وما يهبه البحر من تنوع، إلى أطباق عظيمة.. كان أمامنا رجل وامرأة يتبادلان القبلات وسط لقم الطعام، وخلفنا رجل وامرأة آخران يتعاركان بلغة لم أفهما. شربت حساء المحار لأول مرة، وأكلت سمكاً مطاطياً، لا أعرف اسمه، وجاءني سليمان بكأس مضلعة تحوي شراباً مسكراً.

- قدمت لي كأس خمر، أليس كذلك؟

- لا معاليك، لم أقدم لك شيئاً من الحرام.

بل قدم لي شيئاً من الحرام، وكان مستعداً أن يقدم أكثر، لو مكثت في تلك البقعة المغوية أكثر، وربما كان سيصحبني في سهرة، وتصحبنا الفتاة ضاحكة العينين تلك.. ماذا كان اسمها؟ لينا.. ليانا.. ليان؟ لم أعد أذكر. ابتسمتُ باطمئنان، ذلك أن غريمي ابتدأ يرتعش. ربما غضباً.. ربما خوفاً من الذكرى، فلم يكن من المألوف أن يعود المهاجرون إلى الوطن مرة أخرى بسهولة، ولم يكن من المألوف أيضاً، أن يعمل نادل في وظيفة مدير مكتب وزير.

أظنني أعطيت سليمان بطاقتي، وسألته إن كان يرغب في العودة والعمل معي، فلم يجبني في وقتها، وما إن عدت حتى وجدته عندي في مكتبي، ويعلن موافقته.

- طيب.. انصرف.

ينصرف، ظافراً، وأبقى داخل سجن البروستات المظلم، سجن الاحتمالات التي لا يستطيع حتى ستالين، ومن اخترع علم الجراحة أن يتكهَّن بها.

-١٧-

عدتُ إلى مكتبي بعد شهر كامل، سمّيته شهر الغنائم، حيث غنمت فيه وبرغم الآلام كلها، وقتاً طويلاً أقضيه مع نفسي، وكان آخر وقت قضيته مع تلك النفس، قبل ستة أعوام تقريباً، ولدرجة نسيتُ فيها طباع نفسي، إن كانت طيبة فعلاً، أم أمَّارة بالسوء؟

إن كانت جريئة، أم ممعنة في الجبن؟

اكتشفتُ في تلك الفترة التي كان نصفها في المستشفى، قبل وبعد إجراء عملية نزع البروستات عن جسدي، بواسطة الدكتور ستالين، ونصفها في البيت، في فترة نقاهة كما يسمونها، أنني قد أكون شخصاً آخر، غير الشخص الذي أعرفني، وأن المحيطين بي قد يكونون روائع أو حثالة، ولم أدرسهم من قبل جيداً لأعرف.

أتيح لي في تلك الفترة، مثلاً، أن أسأل نفسي، وبجدية شديدة، لأول مرة، عن معنى سليمان صافي، ذلك الذي يدير مكتبي ويديرني منذ زمن، وأكاد أبتهج بإدارته، وأزغرد لها؟

ما قيمة هذا الرجل حقيقة؟ وهل يكفي أنه خفيف، ولطيف، وسريع الإجابة على الأسئلة، ومنحط في أحيان كثيرة، وجدير بالثقة كلها، الحميدة منها والخبيثة، أن يتمدد هكذا في مكتب وزير؟

وأيضاً نفسي لا تملك إجابة، سألتها، وكررت السؤال، كررته مرات: هل نستغني عن سليمان؟ هل نطرده؟ هل نعيده

إلى سرواله الباهت المصنوع من قماش لئيم وخشن، وقميصه الذي يحمل صورة مغني الخنافس الأمريكي: جون لينون؟ وترنحه المستمر، في مطعم تانجو، حاملاً رغبات الناس، ووقود نشوتهم؟

لا إجابة مطلقاً، وكأن نفسي خرساء لا تسمع، أو بكماء لا تستطيع الرد.

منذ حوالي السبعة أشهر، وبعد أن رتب سليمان مقابلة للسفير الأمريكي معي، وجرت في مكتبي وبحضوره، لاحظت أنه منتفخ أكثر من العادة، بمعنى أن رأسه كانت مرفوعة أكثر، جلسته على المقعد الجلدي، ثابتة بلا أي اهتزاز، وليس ثمة أخطاء في اختياره لرباط العنق كما يفعل دائماً، لا حظت أن السفير الذي كان يناقشنا في إمكانية إنشاء متحف للزواحف، في بلد تكثر فيه الزواحف وبشتى أنواعها، وبدعم أمريكي كامل، قد اختص سليمان بربع الحديث، إن لم يكن نصفه، وكانت ثمة فقرات، شديدة الخصوصية، وترتبط بالسيادة العليا، لا ينبغي أن يجيب عليها مدير مكتب، في حضرة وزير.. مثل: فصل الدين عن الدنيا، وردود الفعل المتوقع حدوثها في الشارع، إن استيقظ الناس صباح أحد الأيام ووجدوا تجمعات من العراة، يتهادون، ومسألة حساسية الشعب تجاه الشعوب الأخرى، هل هي حساسية عقل أم حساسية قلب؟

ذلك اليوم خفت حقيقة، والدول الكبرى، كما هو معروف، مغرمة بالحلفاء، وتبحث حتى في المزابل ومجاري الصرف الصحي،

والأزقة التي يتمشى فيها العفن، عن حلفاء لها، يؤازرونها بمعنى وبدون معنى. وهؤلاء تدللهم غاية الدلال، تمنحهم عطايا بلا حصر، وقد تصيرهم أباطرة، ولو كانوا خدماً للأباطرة.

كان سليمان بلا طموح، صغيراً كان أو كبيراً، وهو يحمل أطباق الطعام، مترنحاً بها في مطعم تانجو، يدوره السياح بأصواتهم المترفة، ويترنح، وتصرخ المرأة السبعينية، ذات وجه الألمان الذي كله حب شباب ميت، من خلف طاولة الحسابات: سوليمان، سوليمان..وغد، وغد.. ويترنح أكثر، والآن لا بد امتلك طموحات كثيرة، وكبيرة، ذلك ببساطة أنه اقترب.

أظنني لعنتُ مطعم تانجو المرتب، وبحيرة كومو المعطرة بالروائع، وتلك البلدة المدهشة: لوقانو التي حتى القبح فيها جدير بتذوقه. كان المغني، في وسط ساحة رباباليكا، يصرخ بلغات عدة، يمزجها ويخرجها لغة واحدة:

كل من جاء بلدتنا نعتبره عاشقاً.

كل رجل عاشق،

وكل امرأة نواة معشوقة.

نحن النوارس البيضاء،

ونحن تلك الجبال التي ترونها

ولا تعرفون كم غرفة نوم بداخلها؟

بالأمس سألني خان من كراتشي؟

هل أجد عندكم وجبة حب شرقية؟

قلت: لا.

عندنا الشرق كله، اختر أنت وجبتك.

نصفق من نزف الموسيقى، ولا نعرف معنى الكلمات، وحين تفسر لنا بعد ذلك، نعيد التصفيق بجنون، ويكون المغني قد ذهب.

ومنذ أربعة أشهر، كنا نحضر احتفالية ثقافية، في بيت شكسبير، بضاحية استراتفورد، في أحد أطراف لندن. كان سليمان معنا، ومعنا أيضاً أستاذ جامعي سابق، اسمه عمران، ويسمونه العجوز، لأنه تجاوز التسعين وما زال يقرأ ويكتب، ويسافر ويجيء، وقادنا نحن الأصغر والأخف، في دهاليز عجيبة، وحارات ضيقة، لم نكن نعرف بوجودها في مدينة شديدة الجاذبية مثل لندن. كان يتابع التاريخ كما يقول، ويجد التاريخ ملقى في الشوارع، أو مكتوباً على الحوائط، وأخبرني مرة أنه وجد الجملة الشهيرة: "ممنوع التبول"، التي لا يخلو حائط بيت منها، في البلاد كلها، مكتوبة بأكثر من سبعين لغة، على حوائط، في كل بلدان العالم الثالث، ونال بحثه الذي أجراه في تلك الجملة، اهتماماً كبيراً، حين قدمه في مؤتمر عالمي. في تلك الرحلة، لاحظت أن سليمان معنا، وليس معنا حقيقة، كان ملتصقاً بامرأة خمسينية،

نحيلة جداً، ويتحدثان بهمس وأخالهما يرددان: الوزير، من حركة الشفاه التي أحاول قراءتها، أو أخمنها. قفز إلى ذهني على الفور احتمال أن يكون ثمة عرض مقدم لسليمان من جهة ما، لتخريب شيء ما، أو الانحياز لوجهة نظر ما، خاصة أن المرأة كانت من كندا، ولم تكن لها علاقة بأي مواد ثقافية، ستقدم في تلك الاحتفالية، كما عرفت، ووجودها نفسه لم يكن مبرمجاً، ولا يعرف المنظمون من هي أصلاً؟

حين عثرت على سليمان أخيراً، وأعني، عثرت عليه بلا رفيقته وسألته عن الكندية النحيلة، قال بأنها صديقة قديمة، وعرفَتْ بوجوده في لندن، فجاءت لملاقاته، قال بأنها صاحبة مطعم تراثي، تقدم فيه الحلوى بطريقة القرن الثامن عشر، ولحم الثور بطريقة طهوه قبل الميلاد، والطهاة الذين يعملون معها، فيهم من تجاوز عمره المئة وعشرين عاماً، وفي أول فرصة تذكرت فيها تلك الواقعة، أرسلت استفساراً مختصراً لسفيرنا في كندا، عن ذلك المطعم، فرد بأنه لا يوجد مطعم بتلك المواصفات في كندا كلها.

أبعدتُ خاطرتي عن سليمان، فلن أعتبره لغزاً، أو عاهة أضطر لتحملها. كان يؤدي واجباته كلها، على أي حال.

لا أنكر أن ميمونة جاءت في خواطري أيضاً، الرقيقة، ذات العينين المُغويتين، والصوت العذب، جاءت أكثر من عشرين مرة، في ذلك الشهر الاستثنائي: كانت في شتى الهيئات والصور،

مرة: بنت الجيران، التي سأتلصص عليها وأنا أدخل بيتي وأخرج. مرة: سكرتيرة خاصة بالوزير، لا تخضع لإدارة سليمان. مرة: بائعة ورد في محل من الدرجة الأولى في وسط سوق الأفرنج، يشتري منه الوزير، الورد بلا أي هدف سوى أن بائعته فاتنة، والمرة الأحلى التي جاء بها خيال اليقظة، كانت حين صورها عروساً لمعالي الوزير، وفي ليلة الدخلة، يقود ولدانو أيوب ساتر، الكيني عربة زفافها، ويتوقف عند فندق هيلتون، فلم يعد لفندق زينوف، الرخيص المتسخ، أي وجود الآن..

عند ذلك الحلم اليقظ، توقفت. توقفت ولا أريد أن أحرج يقظتي بأحلام أخرى قد لا تكون ممكنة التحقق. سأنتظر حتى تنتهي العطلة القسرية هذه، وأحصل على معلومات بشأن الفتاة، وإن استطعت، أحصل على درب، وإن لم أستطع، أترك الأقدار تأتيني بشيء.

كنت سرقتُ يومين فقط من تلك العطلة، قمت فيهما بزيارة لمزرعة أملكها في الضواحي، على بعد ساعة فقط من العاصمة، وأستمتع بهوائها، وما تدره من بهجة، بين حين وآخر.. هي مزرعة لم أسرقها من أحد، ولا أعرف من أنشأها في الأصل، وتخلى عنها؟ كانت قد عرضت للبيع، وأوصيتُ سليمان أن يشتريها، واشتراها.. لقد دفعت له سعرها بالكامل، و لم أجد وقتاً في الماضي لأسأل نفسي، من أين جاء ذلك السعر؟ هل هو من إيراد ورشة راضي للحدادة، التي ما تزال تعمل؟ أم من

أين؟ والآن في فترة فراغي واختلائي بنفسي، سألتها.. ولم تكن ثمة إجابة، لم تكن نفسي تعرف مصدر السعر، إن كنت دفعته فعلاً؟ أم دبره سليمان؟ أم لم يكن هنالك سعر على الإطلاق..

في اليوم الأول، الذي وصلت فيه إلى المزرعة، وكان الجو ملائماً للفرح، هاجمني وأنا أتمشى على مهل، ويتبعني حارسي بكَّار متخشباً، رجل في نحو الخامسة والسبعين، كان مهتاجاً بشدة، يرفع قبضتيه، ويهزهز رأسه، ويصرخ بلا توقف:

- هل تعرف الجمل وما حمل يا جمعة؟

أمسكه بكَّار بالطبع، لوى يديه خلف ظهره وحاول إسكاته، لكن هياجه اشتد:

- هل تعرف الجمل وما حمل؟

هل تعرف أن درة ماتت لأنك حي؟

هل تعرف ذلك يا جمعة الحداد؟

استغربت حقيقة، دققت بفزع في وجه الرجل، كان مليئاً بالحفر، وأكياس الدهن التالفة، وقد غطى جزءاً منه شعر أبيض، غزير كان يندلق من الرأس، دققت بفزع أقل وبدا لي مألوفاً، لكني لم أستطع معرفته، كان يعرف أنني جمعة، وأنني صاعد من مهنة الحدادة، ويخاطبني بلا لقب كبير، ولا أي لقب، ويعرف مزرعتي أيضاً، لأنه الآن فيها. كان مجنوناً بلا شك، ولكنْ في جنونه سمة أو ملمح يخصني..

من الممكن أنه ترك الجمل بما حمل لي ذات يوم، حتى أحصل على الجمل بأحماله..

من الممكن أنه يهزأ ولا علاقة لي بالجمل وما حمل، ودرة التي ماتت لأنني ما زلت حياً؟

من هي درة.. يا إلهي.. من هي درة التي قتلتها لأعيش، ولا أذكر؟

كان بكّار قد مضى بالرجل بعيداً، وأغلب الظن، سيكتفُه بالحبال، ويحمله إلى الشرطة القابعة في مخفر صغير، قريب من المزرعة، حتى تعلمه التعامل مع وزير، بغض النظر إن كان مجنوناً أو عاقلاً، .. كنت أفكر في درة، أستدعي كل درة ربما مرت علي، أو مررت عليها ولو في فقرة صغيرة من فقرات الحياة، كأن تكون بنت جيران قديمة، أو فتاة سكنت حي حفرة لأيام، وذهبت، أو المرأة العابرة بباب بيتي ذات صباح، أو ربما بائعة النبق التي استلفت منها قرشاً وأنا طفل.. أو... أو..

واكتشفت وأنا أكاد أسقط إعياءً وتلفاً، أن درة الوحيدة التي صادفتني في حياتي كلها، كانت أمي.. نعم أمي درة صابح، واكتشفتُ وقد جلست على الأرض بسبب الإعياء، فعلاً، أن الرجل المعتدي المجنون، كان خالي منصور صابح، الذي لم أرَهُ منذ أزيد من أربعين عاماً، حين اختفى فجأة ولم يعد بعد ذلك قط.. قيل في ذلك الوقت أنه ذهب إلى الغرب، صحبة امرأة عشقها، قيل تعرف إلى عدد من الجنيات الموسرات، أغرينه بالمتعة

والرحيل معهن ورحل، قيل أسره قطاع طرق متغطرسون وباعوه في دولة بعيدة، وقيل مات بمرض الحمى الصفراء، في الحدود مع دولة أفريقية مجاورة.

خالي منصور.. خالي منصور..

أهتف بإعياء، رأسي تدور بأسى، ولا أستطيع الوقوف، لقد أخبرني الدكتور ستالين، بأنني نزفت كثيراً من الدم، أثناء إجراء الجراحة، وأنهم عوضوني ببعض الليترات، لكني أحتاج لزمن طويل حتى يعود جسدي لكامل لياقته. حذرني من المشي السريع، والعلاقات الحميمة، وكان جاداً، ولا يعرف أنني لم أمشِ بسرعة منذ أصبحت وزيراً، وعلاقتي بليز كانت علاقة جار متزمت بجارة متزمتة.. خالية من كل الألوان الفاقعة. خالي منصور.. لم أقتل أمي درة، أقسم لك، وبكيتها بدمي حين ماتت وما زلت أبكيها إلى اليوم، خالي، هم ذهبوا وحدهم، وتركوا لي الجمل بما حمل، ولم أنحت ذهابهم، أو أؤطره في ورشتي، أقسم أن صابر ما زال يأتيني في الأحلام، حاملاً كرة القماش الرخوة، يلقيها إلي ويصيح: أمسكها يا جمعة.. أمسكها. أقسم أنني ذهبت إلى الهند، حاولت أن أستقطب فاطمة، أن أجرها وأجر أبناءها الهنود إلى الوطن، وأبوا، أقسم أن أمي ماتت من أمراض كبر السن، كان عندها قرحة في المعدة، وتخشب في الركبتين، وانزلاق في غضروف الظهر، وضمور في عضلة القلب، وماتت وقد تجاوزت الخامسة والسبعين، لكن أين كنت أنت؟ خالي الوحيد، أين كنت؟

كنتُ أجلس على حجر تحت شجرة من أشجار النخيل العامرة في المزرعة، أحاول أن لا أفقد الذاكرة، أو أفقد الوعي، وبي وَهَن غريب، تصورت للحظة أنه وهن الموت، وبدأت أبحث عن اليقين. لم تكن ليز موجودة في البيت حين أتيت في الصباح، كانت كالعادة برفقة الولد أيهم، تبحث عن مصدر غرور جديد، لتغرسه فيه، وقطعاً كانت ستمنعني، ستقف سداً أنثوياً خارقاً في وجه ذهابي إلى المزرعة، أو أي مكان آخر، ولن أفعل شيئاً سوى ترك الفكرة. كتبتُ لها ورقة، وخرجت.

رفعت وجهي لأجد بكَّار يتأملني مرتعباً يسألني عن الخطب، وإن كنت أحتاج لإسعاف، قلتُ لا شيء، لا شيء، أين ذهبت بالرجل؟

- إلى مركز الشرطة.

- لا.. سنرسله إلى مصح للأمراض العقلية، أحتاج أن أكلم سليمان.

لم يكن ثمة هاتف بالمزرعة، ولا المزارع المجاورة، وما تزال شبكة الهاتف، كسيحة، بشكل غير معقول وجملة الرئيس المثبطة، مفعلة في حقها، وحق أشياء كثيرة، بحاجة إلى إصلاح.

- لكنه هاجم معاليك، لماذا تهتم به؟ دعِ الشرطة تتولَّ أمره.

يقول بكَّار ولا يدري أن ثمة دماً يجري في عروق المجنون، هو دمي أيضاً.

لا بأس، يا بكَّار، لنذهب لقسم الشرطة، ونتحدث إليهم وإلى سليمان.

في منتصف الطريق طلبت فجأة من بكَّار أن يتوقف، وأن يعود إلى المزرعة مرة أخرى. كانت لحظة صفاء مع الظلام، الذي أنا منغرس فيه، توصلت إليها بلا عناء. خالي منصور لم يكن هنا، أي في الحياة التي طرقت أبوابها، واستجابت لي، ولن يكون هنا أبداً.. لقد ترك هو الجمل، وكان من الممكن أن يكون بجمال عدة، تتهادى بلا مشاكل، الخال المدلل الذي سيعيش في غرفة خاصة بالأخوال والأعمام في بيت سلطوي، لكنه لم يكن هنا..

- والمصح النفسي معاليك؟

- لا ضرورة لذلك يا بكَّار، دعِ الشرطة تتولَّ الأمر، ألم تخبرهم أنه هاجم وزير الثقافة؟

- نعم أخبرتهم.

- جيد..

وابتسمت بوحشية هذه المرة.

في المزرعة لم يكن لأحد العمال يد في وجود مجنون متشرد بنيات سيئة أبداً، قالوا كان يأتي يومياً منذ شهر، يسأل عن الوزير، ويصيح، ويمضي بغضب ويعود مرة أخرى.. ماذا جرى؟

كانوا يسألون.

لا شيء، أجيب، وأدخل إلى غرفتي الجيدة لأستريح.

كانت ثمة أشغال كثيرة، مؤجلة، استقبلني أولاً، كل رعاياي عند بوابة الوزارة. كانوا سعداء بحذر ويخافون أن يكونوا سعداء جداً، ويصدر قرار مفاجئ بطردي من الوزارة، ويعرف الوزير الجديد، سعادتهم بسلفه، وربما يتكدر "الدب" ساعدته في بيع التوافه، أمام البوابة في كشك صغير، وكان من الأعراب المهاجرين من القرى البعيدة، ولا يعرف هو نفسه لمَ اسمه "الدب"، وليس "سيف" أو "خنجر"، أو أي أداة من تلك الأدوات التي يستخدمها أفراد قبيلته في البادية. الهندي شوبار، المحال إلى التقاعد لأسباب كثيرة، وكان أمضى أكثر من ستين عاماً، ومنذ عهد الاستعمار، بواباً في المنشآت الحكومية، منها خمسة عشر عاماً في بوابة الثقافة. كان قد شاخ، وتناثرت في جلده بقع شُخصت بالجذام، ولا يود الإقرار بأنها جذام، وقد أصر في إحدى السنوات على تعلم قواعد النحو والصرف، ولم يستطع أن يجيد تلك القواعد أبداً. كان من بين الموجودين، رجل اسمه همد، وأظنه من الساحل، فقد كان يرتدي زي الساحليين المكون من الجلباب القصير، وفوقه صديري قاتم الألوان، وينكش شعره بالطريقة الساحلية المعروفة. هذا الرجل بالذات كنت أستغرب فيما مضى، من وجوده في وزارتي، وسعيتُ مرات عدة لأفهم معنى وظيفته، وأي المهام يؤديها، وإن كان يترقى أم ما زال يتسكع في درجة مالية لم يفارقها؟ ولم أحصل على أجوبة ملائمة.

لم يكن موجوداً على مكتب معين، ولا متوفراً في البوابة، ولا يشاهد في الممرات إلا نادراً. كان معظم وقته مدسوساً، لا أدري لماذا ومن ماذا؟ طلبت من سليمان صافي أن يتعرف إلى وظيفته، ويعرفني بها، فوعدني كثيراً، ولم يفعل، أو ربما فعل ووجد ما يمنع من إخباري.. وفي مرة كنت خارجاً من مبنى الوزارة، يتبعني بكَّار كالعادة، شاهدتُ همت متكئاً على إحدى الأشجار، ويتحدث إلى امرأة محنية الظهر، برغم أنها بدت لي أصغر كثيراً من أن ينحني ظهرها. كان الحديث ودياً كما بدا، ضاحكاً، ومنغماً، وهمد يبدو محموماً في اتكاءته، ويكاد غطاء رأسه يسقط ولا يمد يداً لتعديله. قلت لبكَّار سأتحدث إليه، فأسرع بكَّار إلى حيث اتكاءة همد والحديث المختلج مع صاحبته، وكان شيئاً غريباً جداً، أن المرأة اعتدل ظهرها فجأة، وركضت من المكان، بينما بقي الساحلي مكانه، لكن بلا اتكاء على الشجرة.

قلت حين وصلت إليه: هل من الممكن أن تخبرني، ما هو العمل الذي تؤديه هنا؟

قال مباشرة، وببرود شديد، وبدا لي لا يعبأ بمحدثه إن كان الوزير راضي، أو البواب شوبار:

- أطحن القمح، وأشوي الذرة.

كان بكَّار قد انتفش، ويسمع لغة عدائية من موظف في الوزارة، وهو يخاطب الوزير، أمسك همد من ياقة قميصه، وزمجر: تأدب يا ..

ولم يكمل، وأعرف تماماً تكملة كلمته، وأنه بتر الكلمة احتراماً لي، وقد يعود غداً أو في أي يوم آخر لتكملتها. كان بكَّار عنيداً، وقبيحاً جداً في حراسته، ويملك يقيناً مطلقاً أن حراسته للشخصيات، في فترة دوامه الرسمي، تشمل حتى حراسة شخيرهم إن شخروا لأي سبب، وتبولهم في المراحيض، إن دخلوا مراحيض عامة.

تغاضيتُ عن وقاحته، كررت سؤالي:

- ما هي وظيفتك هنا لو سمحت؟

ردَّ بوقاحة أشد، ومن لسان يبدو أنه لم يتعود سوى الوقاحة: يمكنك سؤال الأخ الرئيس شخصياً عن معنى وظيفتي.

كانت ساعته التي تبرق في ضوء الشمس، من ماركة شهيرة، وعرفت علامتها على الفور، وكنت قد زرت مكان إنتاجها في جنيف، في تلك الرحلة إلى سويسرا التي التقطت منها سليمان صافي، نفسها. كانت من ماركة رولكس، ذهبية، وفخمة وذات "مينا" أسود مدهش، تتناغم فوقه حركة الزمن، ولم تبدُ لي أبداً تتناسب وقميصه الساحلي، وتسريحة الشعر المنكوش، وأيضاً وجوده كموظف من المفترض أن يكون هامشياً في وزارة هي نفسها هامشية في نظر السلطة.

أظن بكَّار ارتج حقيقة، حين سمع الرجل يأتي على ذكر الرئيس.. تراجع إلى الخلف بغتة، وابتسم، ولا أستبعد أن يكون انحنى أيضاً، حتى لامست جبهته الأرض، لأنني تشوشت أيضاً.

كنتُ أعرف أن موظفي الرئاسة متعددو التخصصات، وينتشرون في المسافة بين القصر والشعب، ولم يخطر ببالي قط، أن يوجد في وزارتي وقريباً من مكتبي، موظف بمواصفات قحة، ليراقب أدائي، ويكتبه تقارير مباشرة، أو غير مباشرة. والآن وبعد أن كشف همد عن نفسه، سيكون من المنطق أو المناسب أن يستبدل، لكن الذكاء المؤذي لرؤسائه، لم يفعل ذلك، ظل كما هو، موظفاً بلا وظيفة، قد يظهر يوماً ولا يظهر يومين آخرين، يضع على معصمه ساعة رولكس، ويتفرج في السر أو العلن، على ذعري وذعر موظفي وزارتي، متى ما أراد، وأظنه إن لم يعثر على ذعر مناسب لإيصاله إلى الأعلى، سعى لتكوين ذعر خاص، بنفسه.

كان يقف ويبتسم ويستقبلني عند بوابة الوزارة، كأنه موظف عندي، كأن راتبه بتوقيعي أو توقيع سليمان.

دققتُ في الحاضرين جميعاً، وكان فيهم أشخاص لا أعرفهم، تلك المرأة البدينة التي ترتدي ثوباً أبيضَ بلا نقوش، وفي يديها آثار حناء، لا أعرفها، ذلك الشاب النحيل جداً، الذي يحمل كاميرا قديمة، يطارد بها ابتساماتي، لم أرَهُ أبداً، وهذا الرجل العجوز، الذي يشبه سكان السجن السياسي، يصافحني بشوق ومحبة، لم يكن من الوجوه المألوفة عندي، على الإطلاق. وقطعاً كانوا جميعاً موظفين هنا، أو في مبانٍ أخرى تتبع لنا، ولا أعرف عنها إلا ما يُزوّدني سليمان به.

كنتُ في تلك اللحظة وبلؤم خاص جداً، أبحث عن أخت الرضاعة المزيفة: ست النساء، برغم أنني لا أتوقع وجودها، كنت أريدها أن تكون هنا، ووسط هؤلاء المحتشدين، تطالبني بتعديل وظيفتها من عاملة إلى رئيسة عاملات، أو توظيف ولدها الأصغر: فرج أو فراريج كما تسميه، ذلك الولد الذي لم أحبه أبداً. ولا أدري لم أتخيله بالرغم من أنني لم أرَهُ سوى مرتين فقط، أحد رجال العصابات الإجرامية، التي أتوقع أن تتكون بجدارة، وعلى النهج الأمريكي، في السنوات المقبلة، كنت أريد ست النساء لأتهمها بالسب والقذف، حتى لو لم تسب أو تقذف، وتلك تهمة تلقيها في السجن عامين أو ثلاثة. سأسأل ذلك اللؤم الذي باغتني: ماذا لديك معها؟ والمرأة اختفت منذ ستة أعوام ولم تزعجك؟

لا أدري.. واللؤم إن تمكن، لا مجال لمناقشته، أو سؤاله لمَ تمكن؟

أول ما جلست على مكتبي الأسود الكبير المكتظ بالأناقة، وعلى ركن منه، شمعة خضراء تحترق بلا ضوء شديد، وتضخ عطر الليمون. بدأت أتذكر أو بالأصح، ألملم ملامح وظيفتي الرسمية التي غبت عنها زمناً، لم أكن مغرماً بالإجازات، ولا أذكر أنني قمت بإجازة تعدت الأيام الخمسة، منذ شهر عسلي مع ليز، الذي دام خمسة عشر يوماً، كنت فيها بعيداً عن الضجة والحديد، وأجاور المتعة والمرح. عثرت على بعض ملامح الوظيفة على ورق أمامي، في هيئة تلك الاجتماعات المؤجلة، بسفراء

اليابان وبورما وجزر المالديف، الباحثين عن العلاقات الحسنة، وسحارة الجدات المليئة بالجد والهزل على حد سواء، وقررت أن أتواصل بمواعيد جديدة، مؤكد سينسقها سليمان، إن لم يكن نسقها بالفعل..

كان ثمة كورال غنائي اسمه: عذراً يا عذر، ألفه شاعر كان زميلاً للرئيس الهباش، حين كان عقيداً في كتيبة حرس الحدود، قبل أن يعود إلى العاصمة، وينقلب بتعبير الناس، أو يثور بتعبيره الشخصي وتعبيرنا نحن الجالسين معه في الظلام، وأبى الشاعر، بشدة أن يصبح وزيراً أو وكيل وزارة، أو متحدثاً رسمياً، أو مسؤولاً عسكرياً رفيع المستوى، في أي سلاح من الأسلحة، مفضلاً وظيفة الشاعر، والآن هو شاعر في قصر الرئاسة، براتب شهري جيد، ومزايا كثيرة منعشة، منها علاوة اسمها: دعم الإيحاء، تتيح له قرض الشعر في المطاعم الراقية، والمقاهي الملونة بالأضواء والنادلات الإثيوبيات، وربما في المراكب الشراعية التي تقطع النهر جيئةً وذهاباً.. هذا الكورال الذي ينتقد بشدة، معنى أن تكون حزيناً بلا حزن، وصاحب وطن بلا وطنية، وجزاراً بلا لحم، ومقاتلاً في جبهة الأعداء بلا أعداء، وصابراً على الأذى، بلا صبر، من المفترض أن يقدم فوراً، وبلا أي تأخير إضافي، في أحد الشوارع الرئيسية في العاصمة، وتحضره كل قطاعات الشعب، بما فيها ذلك القطاع المتخصص في إيقاد العنف والصخب وإشعال المظاهرات التي تندد بالنظام في الشوارع.

كانت تلك معضلة كبيرة، أن نستقطب معارضينا، بحيث يبدون في وسط الشعب شريحة منه، وممتزجة به، وأوكلت المهمة القاسية هذه، لوزارتي، وأخبرني سليمان صراحة، أن الرئاسة تثق في قدرة الثقافة على الفعل التافه، أكثر من أي وزارة أو إدارة حكومية أخرى.

سألته وأنا مستغرب: ماذا يقصدون بالفعل التافه؟

– أشياء كثيرة ومتشعبة، مثلاً: أن تتحدث عن وفرة حبوب الذرة، أمام مظاهرة غاضبة، تتحدث عن غلاء حبوب القمح.

كانت هي كلماتي نفسها، التي نطقت بها في اختبار العقيد علي فتح الله، الذي أجراه معي، في ورشة راضي للحدادة، قبل أكثر من ست سنوات، واستلمت بموجب نتيجته وزارة الثقافة.

كان الأمر مدهشاً فعلاً، ومربكاً فعلاً، والفريق الذي على هرم السلطة، يدهشني بإصراره على البقاء هناك، بعيداً عن اللمس، وفي نفس الوقت، يلمس كل الأشياء. لم يكن اختباره بلا معنى، إذن، وتذكرت لتوي أنه أرسلني منذ أربعة أعوام، لحضور احتفالية في موسكو بمناسبة مرور مئة عام على ولادة ديستوفسكي، وكنت مطالباً بإلقاء كلمة، وألقيتها بالفعل، أيضاً تذكرت فرقة جاكوب لموسيقى الريف الأمريكية، أو الكنتري ميوزيك، التي تمت دعوتها بإيعاز من الرئيس، لتُحيي فقرات ضاجة، في احتفال رسمي، أقيم منذ عامين. الآن.. التوافه..

مخاطبة الغضب، وتحويله إلى موسيقى، ولا أعرف إن كنت أقدر أم لا؟

تمنيتُ لو أن ستالين عبد الباقي أبقاني في معتقله العلاجي، حتى يلعلع الكورال في الشوارع، وينتهي الأمر، لو لم يطلقني في تلك النقاهة، لأعود بعدها إلى العمل.

لكن في النهاية، لا مشكلة.. دائماً لا مشكلة، سنقيم عرض الكورال، ولن يحدث شيء يثير الغضب، ويؤدي لتفعيل التوافه.

كان عند سليمان، كثير من البنود المؤجلة التي تنتظر عودتي، وكنت متعجلاً أن أصل به أو يصل بي إلى بند الفتاة ميمونة، بالطبع لم يكن بنداً رسمياً، ولكن طالما كانت الخصوصيات المنعشة، من أكثر الأشياء التي تساهم في نشاط الذهن. ولطالما كانت كثير من الوظائف، مملة، ويؤديها الموظفون بلا نفس، وحين وضعوا نساء جميلات، ويانعات في الخدمة المدنية، وسط الموظفين، الملولين، انقشع الملل تماماً، وأصبح عدد الموظفين العاملين الذين يحضرون إلى مكاتبهم مبكراً وينصرفون بعد نهاية العمل الرسمي، أكثر حتى من الوظائف التي تخضع لإدارة ما.

كانت الورقة الأخيرة أمامي والتي تحتاج لنظرة وتوقيع، وبعدها يحين وقت السؤال المتلهف، خاصة باستفسار من إمام أحد المساجد، كان يستفسر عن معنى مصطلح الحداثة، وأرسل استفساره لجهات عدة، لتنتهي المسألة ثقافياً. وقد ذكر بأنه لا

يتبع اللغو، ويريد أن يعرف إن كان المصطلح جاداً وفي طيه مادة مهمة للإنسان في دنياه وآخرته، أم مجرد لغو، ينبغي الإعراض عنه؟

لم يذكر الإمام كيف وصل المصطلح إلى أذنيه، ومن ردَّدَهُ أمامه؟ ولأي غرض استخدم أصلاً أمام رجل دين؟

قلت لسليمان: لدينا عشرات المتفلسفين ودعاة التحديث في الوزارة، لماذا تعرضه علي؟ أرسله للدكتور زكريا، وتعرف أنه مختص.

نعم.

ابتسم سليمان.. سنرسله إليه ولكن بعد أن توقع.

وقعتُ، وكانت مسألة بسيطة جداً ولا تستدعي توقيع وزير، وكان يمكن أن يحولها سليمان إلى أقرب سلة مهملات إلى جانبه، لكنه كثيراً ما يزعجني بأشياء مملة، ورذيلة كهذه..

الحداثة..

يكفي أخي الإمام المعرض عن اللغو، أن تسأل أي تلميذ جامعي يسكن قريباً من بيتك، وسيجعل عقلك يتورم من معنى الحداثة.

عند ذلك سألتُ نفسي فجأة. صحيح ما معنى الحداثة التي لم يتوقف تكرارها عند من التقيتهم من المثقفين هنا وفي أي بلد عربي آخر، منذ عدة أعوام؟

ماذا يُقصد بها تحديداً؟

ولم أصل لنتيجة.

هناك كثير من الفخاخ اللغوية، ينصبها البعض، ويمضون، ليسقط فيها الكثيرون بعد ذلك. السوريالية، التحايل اللفظي، عتبات النص، وكثير من تلك المشاحنات التي لا تمنح نفسها للدارس، ولا تتركه ينام مسترخياً.

طيب. لندع الدروب الوعرة لسالكي الدروب الوعرة، والغناء المبكي الحزين لمن يعشق نغماته.

هاك سؤالي العذب يا سليمان وأتمنى أن تكون الإجابة عذبة:

– هل حاولت تلك الفتاة المتهورة، أعني ميمونة، أن تسعى إلينا مرة أخرى يا سليمان؟

– نعم.

قال سليمان ببساطة شديدة، وبلا أي محاولة لإخفاء بساطته، أو تغليفها بثوب معقد، وأحسستُ أن قلبي يتمدد في تلك اللحظة، قلبي العجوز الذي ثبتت صلاحيته للحياة أثناء إجراء فحوصات ما قبل جراحة البروستات، ينبض بشدة، ويكاد يخرج عن الهيئة الرسمية.

– في الحقيقة لم تحاول هي، لكن ضابطاً أعرفه، في جهاز الأمن الوطني، كلمني أمس بخصوصها.

- جهاز الأمن الوطني؟ ما علاقة الفتاة بأجهزة الأمن؟

صرخت وأوشكت أن أصرخ أكثر وأقول أكثر، أردِّدُ: ما علاقة الجمال المتفرد بأجهزة الأمن؟ لكن انتبهت إلى نفسي، وأنني داخل منظومة من مكوناتها الأمن الوطني.

- مسألة أمنية معاليك، كانت الفتاة داخل مظاهرة طلابية بشعة، وكانت تهتف ضد الشرعية، وتلقي الحجارة على المنشآت العامة، وقد أصيب أحد رجال الأمن الباسلين، من حجر ألقته..

- معقول؟

حقيقة غير معقول، أن تنخرط فتاة بهذه العذوبة في فوضى الفوضويين، أن تهتف، هذا ممكن، ولكن تدمير المنشآت العامة، وإصابة الناس، غير ممكن.

شيء آخر، كيف لفتاة هي ضد السلطة أصلاً، أن تسعى إلى إغواء فرد من أفراد السلطة؟

هذه هي المعادلة الصعبة، وإن شئت، المعادلة الحيوانية الكئيبة التي لن يحلها العجوز الذي تم إغواؤه ذات يوم، ولن يحلها أحد آخر.

أيضاً لا أفهم. لماذا كلم ضابط في الأمن سليمان؟

- لماذا يكلمك ضابط أمن بخصوص فتاة محتجزة لديهم؟

- لأنها أخبرتهم بأنها من عائلة معاليك.

آه.. المعادلة تزداد قتامة، وأنا معلق في طرف منها.. السم اللذيذ.. الإغواء الفاتن.. وثمة شيء يدور بعيداً.. مثلاً مطبخ تطبخ فيه غداءات وعشاءات غريبة الطعم.. مثلاً.. غُرف يمارس فيها العهر النضالي، وفيه يرشح الضحايا.

من رشحني لأصبح ضحية في معادلة حلها ضدي، وعدم حلها ضدي أيضاً؟

فتى الأحلام الأول، الذي يقترب من الثالثة والستين بلا غدة بروستات، هو المنقذ في وقت الشدائد، الذي سيسرع بقيادة قلبه، وبإيعاز منه، لتهدئة خواطر رجال الأمن وانتزاع الجمال من وسطهم، إن حدث وسقط الجمال الذي ضدي وضد السلطة كلها، بين يدي رجال الأمن.

كنتُ منفعلاً من الداخل، أتذكر الفتاة كأنها تقف أمامي الآن، كأنها سليمان، كأنها تلك المرآة الكبيرة في طرف الغرفة التي أرى فيها وجهي حين أدخل أو أخرج.. ثوبها الأبيض المطرز بالأخضر والأزرق، كعبها العالي الأخضر، عطرها الياسمين القوي، الصوت الذي لم أسمع مثله من قبل، ولا أظنني سأسمع، والأهم، كلماتها المميزة في حقي.

أحاول الاسترخاء قليلاً لأكمل محادثتي وسليمان ينتظرني.

- وماذا قال ضابط الأمن؟

- سألني إن كنت أعرف بقرابتها بمعاليك، وأخبرته بأني لا أعرف شيئاً ولكن سأكلمك.

- وهل سيُطلقونها، لو أكدت لهم أنها من أقاربي؟

- نعم، مؤكد، ومع تعهد منها، وربما من معاليك أن لا تعود إلى هذا السلوك مرة أخرى.

- طيب.. اذهب وسأستدعيك ثانياً.

ذهب سليمان، وبقيتُ وحدي، أرفع بصري إلى السقف الأبيض للحجرة، وأعود أحدق في الهاتف الأحمر الخاص الذي يربطني بكل الأجهزة المهمة في الدولة، ومنها جهاز اللواء حيدر ضريس، مدير الاستخبارات، الذي سيحرر حبيبتي فوراً، لكنْ ثمة سؤال كبير قد يتكوّن في ذهنه، واحد من تلك الأسئلة التي حتى لو لم تكن خاماتها موجودة، هم يكونون خاماتها ليسألوها:

ما دوري في دعم تلك الفلول النشطة التي تحارب النظام؟

وما علاقتي بفتاة ستثبت كل التحريات التي سيجرونها بعد ذلك، أنها ليست من عائلتي، ولا أقاربي ولا جيراني، ولا كانت من سكان حي حفرة الذي نشأتُ فيه، وهذا الحي الذي أقطنه؟

ثمة علاقة إذن.. إما علاقة دعم من وزير في السلطة، ضد السلطة، لمطامع ستتبين فيما بعد، أو علاقة إثم بين وزير شيخ وفتاة من عامة الشعب.

هل توغلتُ في أفكاري وتجاوزتُ حد المنطق؟

لا، ما زلت داخل منطق ضريس، وكل الذين يتبعونه مهنياً

ويتبعون منطقه.. وهناك أشياء أكثر تطرفاً من هذا، وأيضاً ما تزال في حدود المنطق.

إذن.

- سليمان.

وجاء على ندائي، كان يزرر سرواله، وأرى قطرات من الماء عالقة بالسروال وأتذكر أنني بلا بروستات، وأستطيع الآن أن أحذو حذوه وأدخل مرحاضي الخاص وأخرج، أزرر سروالي، وقطرات ماء عالقة به.

- نعم معاليك.

- قل للضابط الذي كلمك بأننا لا نعرف أي شيء عن تلك الفتاة، ولا علاقة لنا بسلوكها.

- حاضر..

وأدقق في وجهه لأعرف مدى تأثير جمودي، وظلاميتي في ملامحه وكانت عادية. ملامح دائماً ما يجعلها في مثل هذه المواقف، ملامح مدير مكتب مهموم بالوطن، وضد أي خلل قد يحدث في الوطن، وأي تخريب قد يؤدي لضياع الوطن.

ذهب سليمان، وبقيتُ مرة أخرى أجالس نفسي، لا أحاسبها على نبذ الحلم الذي كنت أعض عليه، بهذه السهولة، لا أسألها إن كنت محقاً أم مخطئاً؟ أنا داخل الظلام، وسأظل

داخل الظلام إلى زمن بعيد، وحتى بعد أن تتم إقالتي، وربما حتى وقت موتي.

الذي يلعق ملعقة واحدة من الظلام، لن يكون وإن صار ضوءاً، أكثر من ضوء باهت وكئيب.

أنت فتى أحلامي الأول معالي الوزير..

جملة تبدو لي الآن، ضعيفة جداً، وبلا أي ظلال ولا تفرعات، ولا إبداع جمالي، إذا ما أخذت في الحسبان مسائل كثيرة أكثر وقعاً، منها أنني في السلطة، وأستطيع إذا أردت أن أحصل على مئة واحدة في العشرين، نضرات، ومثقفات، وينفذن الأوامر، إن طلبت منهن أن يهتفن بأنني فتى أحلام لهن ولغيرهن.

أكثر من شهر، ورغم مرضي وجراحتي، شغلتُ نفسي بما كان يجب أن لا أشغلها به.

أدرت التفكير إلى السيدة ليز، موناليزا البلهاء التي تربي الآن ولداً كان جائعاً ذات يوم وشبع، تعلمه ركوب الخيل، والسباحة في الأندية الأرستقراطية، وغداً قد تضمه لفريق طوبيا أو هرماس، للعب التنس، وتدخله بطولات عالمية. ليز لم تعد أحد الأحلام الدائمة، أعني التي فيها كنوز جمالية أستكشفها في كل يوم.. لقد أصبحت زوجة فقط، رفيقة ضحكات أحياناً وتخاريف أحياناً، ومرضاً وشفاءً من المرض، وغالباً إن متُّ، لن تبخل بدموعها..

لن أفكر أكثر، سأغلق المسألة عند هذا الحد، وآمل أن لا يستجد جديد ويهزني: عاطفة مباغتة مثلاً؟ زلزال وجداني؟ مثلاً.

-١٨-

مضى اليوم الأول للانقلاب، أو ثورة الميزان الأخضر، كما كان يتردد من الإذاعة، مشحوناً، كئيباً، بشعاً، بحظر تجوُّل شرس، شاركت فيه القوات النظامية كلها، بما في ذلك قوات الإطفاء، التي من المفترض أن لا تشارك إلا إذا اشتعلت النار. كانوا يتضاحكون، ويتصعلكون، يشدون النساء من شعرهن، وينغزون الرجال في ظهورهم بكعوب البنادق، أو يرشون البارود في الهواء، بزخات متتابعة، ويستمتعون بأصوات الفزع التي قد تصدر من هنا أو هناك. وإن صادفوا باباً مواربا، يتوارى خلفه فضوليون، يحاولون الفرجة على الوقائع، اقتلعوه على الفور، وجلدوا المتفرجين عنوة، وحتى إن صادفوا باباً مغلقاً، في كثير من الأحيان، قد يقتلعونه، ويجلدون من لم يكن يتفرج، وربما من لم يسمع أصلاً بانقلاب عسكري حتى.

كانت ثمة فوضى شديدة في حينا الجديد، وحينا القديم، حي حفرة، وفوضى في الأحياء كلها، والهواتف القليلة المتوفرة في بيوت قليلة، تنقل وقائع الضرب والسحل والسرقة، والرمي بالرصاص، والعفو إن حدث عفو.

كان العقيد علي فتح الله، قد قال كلمته المكرورة واختفى، عاد وردَّدها طازجة في المساء، وفي آخر الليل أيضاً واختفى، وانشغلتُ وليز ليس بقراءة وضع البلاد في ظل انتشار العسكر في الشوارع، ولا حالة الذعر العارمة التي نسمع بها وعنها، ولا

الفوضى التي قد تمر بكل الأماكن، ومن الممكن أن تغشى ورشة راضي للحدادة وتدمرها، وكل السوق وتدمره، وإنما في محاولة قراءة ما وراء الكلمة المبتورة المكرورة، لنعثر على مجلس وزراء قيد التكوين، فيه وزارة للثقافة.

في اليوم التالي، لم يكن ثمة جديد، هي الأخبار نفسها، التعاسة نفسها، الانقلابيون متورمون، وقطاعات الشعب إما خائفة، وإما حذرة، وإما داخل البيوت بلا أي تفاعل محدد. في الثالث، الشيء نفسه، في الرابع، بدا أن الأمن استتب أخيراً، وقد عادت بعض العربات الخاصة بالطبقات العليا، تطوف بالشوارع، بلا وجل، وتخرج منها أيادٍ ناعمة تحيي العسكريين، أو شفاه ملونة، تمنح القبل الهوائية، وبعض الدكاكين الموجودة في الأحياء، سُمح لها ببيع الأكل والشرب، ومستلزمات الأطفال، وصل إلى بيتي، عسكري طويل وعريض برتبة عريف أو رقيب، لا أعرف تلك الرتب حقاً. كان يحمل دفتراً، أحمر الغلاف، وحقيبة سوداء كبيرة، فتحها أمامي، وكانت تحوي بدلة كاملة، مكونة من الجاكيت والسروال والصديري، وقد خيط على كمها الأيمن قماش أبيض، مكتوب عليه بخط دقيق، مع تحيات الصديق (موسوعة جينيس).

كانت تلك هي بدلة القسم التي سأرتديها أمام العقيد، صباح الغد، وفي قصر الرئاسة، الذي خرج منه الحاكم السابق، غالباً إلى السجن، أو إلى أي مقبرة من المقابر العديدة في

العاصمة، لا أعرف بعد، البدلة التي أخذ العقيد بنفسه قياساتها في ورشتي، الأحد الماضي، وفجر مفاجأة الانقلاب التي ظننتها مزحة. كانت زرقاء من قماش ثقيل، وخشن ومزعج، ولا بد قام بتفصيلها كما هو موضح في الكم الأيمن، الصديق دوشة، أسرع خياط رجالي في البلاد على الإطلاق، والذي يستطيع أن يخيط عشرة سراويل وعشرين قميصاً، في وقت واحد، ولا يتجاوز كل ذلك ساعة فقط.. كان قد رُشح مرتين لدخول موسوعة جينيس، لكن عنصريين يتحكمون في الموسوعة، لم يدخلوه، اختاروا في المرة الأولى خياطاً صينياً من شنغهاي، وفي الثانية امرأة من هونج كونج، وبرغم ذلك، يضع اسمه وبجانبه موسوعة جينيس، في كل بدلة، يقوم بتفصيلها.

لا أستطيع أن أصف كمية المرح التي تدفقت على البيت فجأة، في ذلك الصباح، أمسكتني ليز من رأسي، وأمسكتها من رأسها، وبكينا مرة أخرى، بصوت مبتهج وراقص.

كنا نبكي، ونقهقه في الوقت نفسه، نبكي، ونتبادل القبل، في الوقت نفسه، نبكي ونتذكر أن ثمة أياماً مرفهة ستأتي، ونبكي.. سنسافر كثيراً.. نبكي.. نقهقه، سنحصل على مرح أكثر، ونبكي.. نقهقه.

في منتصف النهار، والراديو المفتوح منذ أيام، وغيرت حجارة إشعاله ثلاث مرات، توقف عن ترديد الخطاب المشتعل منذ الجمعة، وأعلن في بيان رزين هادئ، خالٍ من لغة السلاح والثورة،

قائمة مجلس الوزراء التي تضم فلاناً للمالية، وفلاناً للخارجية، وفلاناً للتعليم، وجمعة راضي للثقافة.

لم يكن ثمة مجلس لقيادة ثورة الميزان الأخضر، كعادة الانقلابات التي تسمى ثورات، وتعين أعضاء لمجلس قيادتها، فقد اكتفى العقيد بنفسه رئيساً لقيادة الثورة، وعضواً لمجلس قيادتها، ورئيساً للوزراء، ووزيراً لخمس وزارات، من بينها الصحة، التي لا أعتقد أنه يستطيع إدارتها، لا من قريب أو بعيد.

كانت المرة الأولى التي أسمع فيها اسمي يتردد بتلك النبرة وذلك الصدى الأسطوري، ومسبوقاً بلقب مميز: السيد جمعة راضي، وزيراً للثقافة.

قلت لليز مازحاً:

- لعله جمعة راضي آخر، لننتظر حتى نتأكد.

ضربتني على رقبتي بقبضة ناعمة، وبكت بقهقهة عالية.

-١٩-

أول مهمة لي بعد أن أديتُ القسم أمام سيادة الفريق، ببدلة الصديق التي تأكدت أنه فصلها، وخاطها بالفعل في عشر دقائق فقط، وبعد أن جلست على مكتبي الواسع، متعدد الزوايا، والذي يضم مروحة ناعمة هنا ومروحة ناعمة هناك، وثالثة بين الهنا والهناك، وإنعاشاً إضافياً يأتي عبر نافذتي، من هواء النهر القريب، هي أن أنهيتُ خدمة: سكر، أو في الحقيقة لم أنهها تماماً، وإنما أبعدت تلك الموظفة التي لم أتذوقها أبداً، وكانت بمثابة سكرتيرة للوزير السابق، إلى أرشيف صغير ملحق بالوزارة، لا تمر عليه الرسائل ولا المكاتبات، ولا يعرف من يشغل وظيفة فيه، أنه يعمل أصلاً في الثقافة.

كانت سكر امرأة ناضجة، في حوالي الخامسة والثلاثين، امرأة أقرب للجمال وأبعد عن الفطنة في رأيي، ومن دواعي الفطنة أن لا تأتي امرأة بكامل إغرائها، ومساحة لا بأس بها من نهدين جيدين، وكبيرين، لتتكئ على طاولة وزير جديد، كان حتى يومين ماضيين حداداً في ورشة، وفي الوقت نفسه، وقبل أن يستوعب الوزير، ثرثرة النهدين، تتحدث عن ورشة راضي للحدادة، وتقترح تسميتها أثراً ثقافياً، ومعروف أن الآثار الثقافية، وحتى لو تم ليُّ عنقها، لا يمكن أن توضع ورشة حدادة معها.

منذ اللحظة الأولى لم أتذوق سكر، ولا أحسست بقيمة أنوثتها، ونهديها، وبدت لي لعبة مسلية أن أدخلها الامتحان

نفسه، الذي أدخلني إياه العقيد، أو الفريق الآن، بعد أن غدا رئيساً وترقى بأحقية أو بلا أحقية لا أحد سيعترض، وكل الثوار العسكريين، يرقون حتى خدمهم إلى رتب متقدمة، وأعرف ثائراً أو منقلباً في أحد البلاد الأفريقية، استولى على الحكم، منذ سنوات رقى زوجته، إلى زوجة أولى، برتبة رائد، ومتسولة كانت ترابط قريباً من بيته إلى قائد متسولين، برتبة نقيب، وخصص لها ركناً خاصاً بالقرب من مكتبه، تجلس عليه، وتمد يدها، تتسول.. كان عادياً جداً أن يصبح العقيد علي فتح الله، فريقاً تتكوم على كتفيه الرتب، وعادياً جداً أن يخترع حتى رتبة جديدة، لم يعتمدها الجيش بعد.

قلت لسكر، التي لمَّت صدرها الآن من طاولتي، وقطعاً وجدتني غير متحمس لمتابعة عرضها:

- كوني هادئة وصامتة لو سمحت.

تراجعت إلى الخلف، وقفت في وسط المكتب صامتة وهادئة.

قلت: هل تعرفين فيودور ديستوفسكي؟

ردت، وألمح مئةً أو ربما ألف علامة استغراب في وجهها، الملون بأصباغ ويلا أو شانيل الفرنسية، التي بدأت تظهر في البلاد، في ذلك الحين، وكانت نساؤنا قبل ذلك يستخدمن أقنعة البيض، والحناء، ولبخات الذرة، والفازلين الرخيص، في تنعيم الوجه والبشرة عموماً، والكحل كأقصى زينة، ولم تكن ثمة زخرفة:

- أظنه لاعب كرة برتغالياً، أو برازيلياً. لست متأكدة.

- جيد.. جيد جداً، هل تعرفين العلمونولوجيا؟

وقفت صامتة دقيقتين كاملتين، سقط الغطاء المتزلج عن رأسها، وأعادته، سقط وأعادته مرة أخرى، سقط وأعادته للمرة الثالثة، سقط وتركته هذه المرة، وكان شعرها جذاباً أو لأقل مثيراً إلى أقصى حد. ولكن ليس بالنسبة لي، فأنا لم أتذوقها منذ البداية.

تمتمت بكلام غير مسموع، رفعت صوتها أخيراً:

- سيدي يوجد في حينا امرأة اسمها علمونة، وزوجها اسمه حراس، ولها ولد عبقري اسمه الساير، اخترع صرخة يصطاد بها العصافير، وساعة حائط تعمل بالماء. هل تقصدها؟

- نعم أقصدها.. جيد.. جداً..

قلتْ متهكماً، سألت:

- وراء كل عظيم امرأة، لماذا اشتهر وليام شكسبير ولم تشتهر آن هاثاواي التي كانت تطبخ له السمك والبطاطا، وحساء الدجاج والطماطم، وتجهز له الحبر الذي يكتب به، وربما الإيحاء الذي يستخدمه؟

ابتسمت سكر، كاشفة عن أسنان خليعة، لا أعرف معنى خلاعة الأسنان، ولكنها خاطرة راودتني، وأخالها في تلك اللحظة،

تفكر في ذلك الوزير المجنون الذي بدأ حقيبته الوزارية، بالهلوسة، ولا تعرف أن رئيس البلاد نفسه، انقلب عسكرياً بهذه الهلوسة. لم ترد، ولا بدت تتهيأ للرد، وظلت أشجعها: شكسبير يا سكر.. زوجته آن هاثاواي يا سكر.

فتذكرت شكسبير، بوصفه محرراً في صفحة الحوادث، في إحدى الصحف المحلية، ولم تتذكر آن هاثاواي أبداً، ولا بدا لها مثل العظيم الذي وراءه امرأة، مثلاً مرموقاً.

طيب:

- هل تملكين مكتبة في بيتك؟

- لا.. لا أملك.

- وإن أردت تأسيس واحدة، من هو الكاتب الذي ستضعين أول كتاب له فيها؟

هذا سؤال من عندي ولم يسأله العقيد في امتحان القدرات، ولو سأله لربما افتضح أمري، فلم يكن لدي مكتبة منظمة في بيتي، وكانت لدي كتب في أغراض مختلفة، مشتتة هنا وهناك، وتركتُ معظمها في بيت حفرة القديم. وحقيقة لا أتذكر إن كنتُ قرأتها كلها أم لا، ولا أستطيع الإجابة عن سؤال، أي الكُتّاب من الممكن أن أضع أول كتاب له إن نظمت المكتبة؟

لكن سكر أجابت على الفور، وكأنَّ أحداً غشّشها، أو

كأنها توقعت سؤالي ونحتت ذاكرتها لتتذكر اسماً. قالت: ألبرتو مورافيا.

كان مورافيا كاتباً إيطالياً، ملعوناً، ومغرماً بتفاصيل النساء الدقيقة، التي قد لا يعرفنها أنفسهن، كما سمعت من بعض المثقفين الذين قرؤوه ولم أقرأه، ولن أقرأه، كما أعتقد، إلا لو أقاموا له احتفالاً بذكرى مولده ودعيت لحضوره في روما، أو مسقط رأسه، ولا أعرف أي بلدة هي مسقط رأسه؟ ساعتها ربما أقرأ كتاباً له للعلم بالشيء لا أقل ولا أكثر، أو لإلقاء كلمة بسيطة أمام المحتفلين.

كان بإمكاني الاسترسال في شأن مورافيا لأعرف معلومات سكر عنه، وأقلعت. كانت تسلية غير محترمة في رأيي، إن كان العقيد قد تسلى بتعقب قدراتي المعرفية فلكي يرتقي بي من حداد إلى وزير، وأنا أتسلى بتعقبها عند سكر، وقرار إقصائها أصدرته بالفعل.

عندي سؤال أخير لا بد أن أسأله، جيداً كان أو مبتذلاً، لا بد أن أسأله:

– من ينقل أخبار الموظفين هنا لسعادة الوزير في العادة؟

أقصد من هو حلقة الأذى المعتمدة في هذه الوزارة؟

كنتُ أعرف، وكل الناس تعرف أن في كل البلاد التي فيها رؤساء ومرؤوسون في كافة أفرع النشاط، لا بد من حلقة أذى

بين الرئيس والمرؤوس، واحدة أو واحد يملك سلطة أن يصيغ قرارات معنوية، يُلقيها في أذن المسؤول، ليحولها لقرارات فعلية أو واقعية. أنا أحرجت الفتاة بلا شك، ومؤكد لم تصادف وزيراً بهذا النمط المخبول من قبل وإن كنت لا أسميه خبلاً، بل محاولة لبدء نشاطي، بلا ألغام، وفي ضوء النهار.

سكر لم تُضئ لي ضوء النهار أبداً، على العكس، أظلمت بي كثيراً.

كانت تبكي، وتحاول أن لا تؤثر الدموع على مستحضرات ويلا وشانيل، المدلوقة على وجهها بفوضى. كان من الواضح أنني لمستها، أعني لمست وظيفتها، وكنت واعياً أنني سأعثر داخل تلك المزركشة على وظيفة أخرى غير السكرتاريا، وأظنها عرفت الآن بأنها لم تعد فوق الجميع وسأدعها تعرف لاحقاً أنها أصبحت تحت الكل في ذلك الأرشيف البعيد.

عند أي تغير وزاري بالتحديد، تحدث طفرات، بعضها كبرى، مثل إبعاد فتاة جميلة، عن جو المرح والإشعاع الذي ربما تحدثه، مثل تعيين نادل مترنح، في وظيفة مدير لمكتب الوزير، وبعضها صغرى، مثل تغيير مقعد أو طاولة، أو الانتباه لشكوى فقير، لم ينتبه إليها أحد من قبل، أو مراجعة دفتر الحضور والانصراف، والعثور بداخله على قصائد غزل، أو أحمر شفاه.

أنا لست مغرماً بالطفرات، ولم أكن أثق فيها كثيراً، بمعنى

أنني أعرف الراكوبة المصنوعة من الخشب وجريد النخيل، ولا أحب التي صنعت من القماش، وألواح الإاسبستس، كنموذج متطور للأولى، فقط استفزني مظهر فتاة أخطأتْ حين ظنتْ أن الإطاحة بوزير، وتنصيب آخر مكانه، يعني الإطاحة بالتذوق القديم للإثارة، مقابل تذوق جديد مكانه.

ذهبت سكر إذن، وجاءت واحدة اسمها: نقشة، لم يرشحها أحد، ووجدتُها داخل مكتب صغير منزوٍ في ركن بعيد، تنسخ على الآلة الكاتبة بسرعة خارقة، ولم ترفع رأسها لتبتسم لي أو تتملقني، حتى بعد أن أخبرها الموظفون المتزاحمون حولي في وجل: معالي الوزير الجديد يا نقشة. يا نقشة.. معالي الوزير الجديد.

سألتها: ماذا تنسخين؟

ردَّت وعيناها على الآلة الطابعة، والورقة التي تنسخ منها.

- استقالتي.

- لماذا استقالتك؟

- غير مسببة.

تأملتها بشيء من الدماثة، أي بعينين تؤطران ظاهرها فقط بلا نية لاختراق ما أخفته داخل فستانها، أي صدرها، الذي تعمدتُ أيضاً أن لا أتناوله بالتحليل لأعرف إن كان بديعاً في تكوينه، أم مجرد صدر امرأة، يهم الصغار الرضع أكثر.. كانت

امرأة، أعني امرأة في تقاسيمها وتفاصيلها وشديدة الولاء لمهنتها كناسخة على الآلة الكاتبة كما بدا لي، لأن أوراقاً كثيرة كانت منسوخة، بلا تعديلات ولا شطب، ولا أثر لمحو قد يكون طال بعض الكلمات. كانت تكتب استقالتها بالفعل، وانتزعت تلك الاستقالة الناقصة من الآلة الكاتبة، وقرأتها سريعاً. كان مكتوباً فيها.. الأخ الفاضل وزير الثقافة، أرجو قبول استقالت... ولم تكمل لأنني أوقفتها عند هذا الحد، كانت جملة "الأخ الفاضل" التي كتبتْها، غير مألوفة بالمرة، لا أحد يخاطب وزيراً بأن يناديه أخ..

لم أفكر أزيد وقلت: قراري أن تعملي سكرتيرة لي حتى عثوري على مدير مكتب. مزقت استقالتها الناقصة وألقيتها، وواصلت جولتي للتعرف على أقسام الوزارة.

نقشة هذه كانت عطراً من نوع خاص، شبيهاً بتلك العطور المرتبطة بالتصوف، التي يحملها المتدينون داخل جيوبهم، مع المسابح، وأقلام الكحل.. لم تسع لتكون حية، بمعنى حيوية المظهر والسلوك، هو موت أنثوي حار ابتكرته وتمارسه في يوم عملها، لم تكن تخطئ في أي شيء. وأحياناً تتعمد الخطأ لتستخدم المصحح، الذي تعتبره من أدوات المكتب الهامة، وليس من المفترض أن يجف من عدم الاستخدام. وحين جاء سليمان بعد ذلك واستلم إدارة المكتب، أخبرته أنها ستتزوج، وكانت أجلت الزواج عاماً كاملاً حتى لا تترك فراغاً في مكتب الوزير، وحين

أخبرني سليمان بذلك، أعطيتها مكافأة جيدة، وتركت لها باب الخدمة مفتوحاً في وزارتي، تستطيع الولوج منه متى ما أرادت.

قالت، وهي تغادر: في حالة واحدة معاليك.. إن تطلقت.

لكنها لم تظهر مرة أخرى، وظل الباب الموارب، مواراباً حتى الآن، ربما جاءت لتلج منه ذات يوم، وربما ينغلق بموتي أو خروجي من الوزارة.

في اليوم الثالث لاستلامي حقيبة الثقافة، وبعد أن تعرفت إلى الأقسام كلها، وتذوقتُ بعض موظفيها، ولم أتذوق البعض الآخر، وبلا أي موعد وبطريقة الأحياء الشعبية الفوضوية، اقتحم حوالي سبعين شخصاً من سكان حي حفرة، مبنى وزارتي.

كانوا مجانين بالفرح، يصرخ رجالهم الله أكبر، الله أكبر، وتزغرد النساء المرافقات بحلوق معروف نتاجها الفظ في مثل تلك الأحياء، ذبحوا ثوراً عظيماً، أمام البوابة، وساعدهم شوبار الهندي الموجود منذ سنوات طويلة في ذلك المكان، في إلقائه على الأرض وتكتيفه بالحبال، وذبحه أيضاً، وكان يملك خبرة جيدة في نحر الذبائح، اكتسبها من العمل صبيَّ جزار في بداية صباه. كان سكان حي حفرة مجانين، وطافحين ببهجة لم يستطيعوا كتمان أي جزء من أجزائها العديدة.

خرجت لهم في حوش الوزارة، أو حديقتها أو ما كان في الماضي حديقة ويبدو الآن أرضاً نصفها حشيش أصفر جاف، ونصفها تراب.

كانت معهم وجداك المغنية، وكانت امرأة رائعة من سكان حي حفرة القدامى، قيل بأنها متزوجة من أغنية حب طويلة، صاغتها بنفسها، وتردِّدها دائماً وأبت بسببها عشرات الرجال الذين أرادوها إما خليلة دائمة، وإما فتاة طعم مختلف أحياناً، وإما زوجة حقيقية، تملأ فراش الزوجية بالحب والصخب.

كانت مغنية مكتملة، وشبعانة، هكذا وصفتها التقارير الكبرى التي يكتبها الأمل، وتوثق الحياة الرغدة في الأحياء الفقيرة، مثل حفرة الذي تربيت فيه، ولقمة العيش الذي خرج منه الفريق علي فتح الله، ليحكم البلاد كلها، برقيها وعدم رقيها، بفواحشها وبؤرها الطاهرة، ولا أنكر أنني كنت أميل لها ذات يوم، وبالتحديد في الفترات التي كانت ليز تبدو فيها متوعكة ومنهكة بالنزيف المتكرر والإجهاض، ومزاج الغدة الدرقية الضحل، أو صداع الشقيقة البريري، ولا أنكر أيضاً أنني أغويتها في أحد الأيام بشطيرتي جبن دسم، وعشرة جنيهات، وكانت مبلغاً ملعوناً تلك الأيام، يمكن به شراء بيت.

أخذتها إلى بيت في نفس الحي، أعرف سكانه وكانوا بلا نخوة ولا مشاعر، سلبية كانت أو إيجابية، وهناك أوشكت أن أتذوق طعمها، ثم أقلعت، وكانت المرة الأولى والأخيرة التي أقدم فيها رجل الخطيئة على رجل الشرف، ولم يكتمل مشوار الخطيئة لحسن الحظ.

ثمة طبل دُق بجنون، وكمنجة عُزفت بيد موسيقيّ جاء ولا

أذكر أنه كان من سكان حفرة العريقين. وجداك غنَّت، غنَّت بصبر، وبمسؤولية شديدة، وأشادت بي كأني من أبطال قصائد الشعراء، أو من مستحقي تلك الإشادات ولم أفعل في حي حفرة أي شيء، أي شيء حلو ولطيف، ويستفيد منه السكان، لا قبل السلطة ولا بعدها، وحتى زوار ورشة راضي للحدادة من سكان الحي، كانوا يُعامَلون كأي زبائن آخرين، لا تخفيض في السعر، ولا منح مجانية، والمرة الوحيدة التي ربما أكون قدمت فيها شيئاً، ذلك حين تبرعت بمقعد متحرك، مستعمل اشتريته من تصفية مؤسسة استثمارية، خاصة بإيواء العجزة مات جميع زبائنها، تبرعت به لمتسول كنت أشاهده قرب بيتي باستمرار.

كان سجلي الخاص ببذر الخير في الحي، ضعيفاً جداً.. وبرغم ذلك يأتي سكان حفرة ليبتهجوا وتغني وجداك التي ما زالت جميلة برغم بلوغها الخمسين، وأطلب منها قصيدة الحب التي تزوجتها، وترددها بأريحية تامة.

-٢٠-

ديسمبر، ١٩٧٨، وقد مضى عام كامل تقريباً، على توعُّكي، وانتصاري على الوعكة، ودخول سم لذيذ دمي، حقنته واحدة عشرينية طازجة، وخروجه بعد ذلك، كأنه لم يدخل الدم قط..

كنتُ قد مرضت بأشياء تافهة، يمرض بها الناس كلهم، وأصابني دوار في الرأس، استمر أسابيع ولم يكن من خلل في المخ لحسن الحظ، التقيتُ بالكثيرين، ولم ألتق بالكثيرين أيضاً، اجتماعات.. اجتماعات.. ترقيات، إحالات للتقاعد، فصل تعسفي، طال أكفاء ومتقاعسين على حد سواء، اعتذرت عن أسفار كثيرة، كلفت بها وكيل الوزارة، وسافرت مرة واحدة فقط، وكانت إلى غينيا بيساو، برفقة سليمان، وثلاثة آخرين، فيهم: عادل سعيد، الذي اشتهر بتقليد أصوات الحيوانات، والطيور، حتى لا تستطيع تفرقة زئيره، من زئير أسد ناضج، وعوائه من عواء الذئب، ونعيقه من نعيق بومة بلهاء، تتسلى في إحدى الخرائب.

كان مشهوراً جداً، واكتسب شهرة في أجزاء عدة من العالم، وعيّنته جامعة آسيوية عريقة، في أحد المواسم الدراسية، أستاذاً زائراً، لمادة التضليل، وكانت من المواد المرغوبة لدى التلاميذ، لما فيها من تنوع، وابتذال، وكثير من الوقاحة عند الضرورة. سافرنا للمشاركة في الاحتفال بيوم القرد، وهو يوم وطني هناك، يدللون فيه القردة، حتى يحولوهم لملائكة، يغذونهم بالموز والمانجو وصلصة الطماطم، وكثير من الأطعمة الطازجة والمحفوظة التي تستورد

خصيصاً لهذه المناسبة، ويأتي مسؤولون كبار في الدولة، يقفون أمام أقفاص القردة الموزعة في الحدائق الجرداء، والشوارع الرئيسية، يبكون، ويستغفرون، ويعتذرون عن أخطاء في حق القردة ربما ارتكبوها، ولن يعودوا لتكرارها أبداً، ولا بد هنا من وجود مقلدين موهوبين، لطمأنة المحتفى بهم، بنفس الأصوات التي يستخدمونها، ولذلك لا بد من ذهاب عادل، بوصفه أحد المرموقين دولياً في ذلك الشأن.

لم يكن المقلد عادل من موظفي وزارة الثقافة في يوم من الأيام، ولم يكن حتى عهد قريب، يؤمن بضرورة وجود كلمة اسمها الثقافة، يستخدمها معتوهون، وفاشلون، وخاض بوصفه عضواً في برلمان صوري، يشكله الرئيس ويعيد تشكيله، ويفتح باب مبناه ويغلقه، ويمنح أعضاءه امتيازات شتى ويسحبها، كلما أراد أن يتسلى، خاض في نقاشات مطولة، مع أعضاء آخرين، جاءت خلاصتها: الثقافة ضرورة قصوى للشعوب، وفي نفس الوقت، لا داعيَ لها على الإطلاق. أي وجهة نظر عادل التي خاض بها المناقشات، ووجهة نظر معارضيه، أي أن النقاشات لم تفعل سوى زيادة هرمونات الانفعال لدى الكل، ولا شيء آخر.

المدهش أن عادل جاء لمقابلتي ذات يوم، كان يخبرني وبأسى شديد، أن جميع قنوات الدعم التي كانت تسهل له مهماته داخل البلاد وخارجها، قد انسدَّت فجأة، ولا مجال لتنفتح أي واحدة منها في الوقت الحاضر: قناة وزارة المالية، تتراكم عليها الصعوبات،

التربية والتعليم، اكتفت بتنظيم مهرجان صغير، طلبوا منه أن يحيي فيه فقرة، يقلد فيها صوت الجرو فقط، ثم يذهب، ولا علاقة لهم بأي احتجاجات قد يُطلقها البعض بسبب وبلا سبب، الاستخبارات التي كان يزود ضباطها بالمعلومات المهمة، كلما سافر وعاد، قرر مسؤولوها فجأة أن لا يستخدموا أي معلومات غير موثقة، ولا مختومة بأختام وتوقيعات الذين تدينهم.

- وضع صعب أخي المقلد.

قلت أواسيه وأرى دمعتين كبيرتين، تتهيآن للخروج من عينيه. كان صوته في بداية حشرجة البكاء، وهو يقول:

- نعم.. معالي الوزير، وضع صعب.

- وما هو المطلوب منا بالتحديد، ونستطيع فعله؟

- ليس كثيراً.

أجاب وأرى ثمة انتعاشاً طفيفاً بدأ يحبو إلى صوته.

- ليس كثيراً معاليك، فقط اعتبار التقليد نشاطاً ثقافياً، واعتماد ميزانية له، تتيح السفر، والعيش في بحبوحة.

السفر، والعيش في بحبوحة، يا للتطلعات، ومن جهة لن يسمح مسماها بتحقيق أي طموح أو تطلعات.

وبحبوحة هذه بالذات، كلمة سيئة. نعم سيئة، وعنصرية أيضاً، لأنها مضادة لكلمة: شظف، التي يختص بها الفقراء. المقلد

عنصري بلا شك، وانتهازي بلا شك، ويلجأ للثقافة التي بذل جهداً خارقاً لإيقاف تفعيلها في البرلمان.

طيب.

لنفرض أنني أود دعمه، وسأتغاضى عن كل ما ردَّده بخصوص وزارتي، كيف أعتمد التقليد نشاطاً ثقافياً؟ كيف أعتبر الرجل الذي يقلد كلباً عاوياً في زقاق مظلم، مثقفاً جديراً باحتضانه؟ كيف أعتبر صياح البومة الكئيب نشاطاً مثمراً؟ وقصائد الهجاء السريالية التي يستخلصها البعض من زئير ملك الغابة، قصائد شعر أصلية؟ لقد وضع عادل على طاولتي مسألته الشخصية، الشخصية البحتة، ويطالب بجعلها مسألة قومية.

أقصر الطرق في هذه الحالات أن أنهض من جلستي التي لم يكن سليمان موجوداً فيها، ومعروف أنه يوجد فقط في الجلسات التي يتذوقها، أو يتوقع من ورائها ثماراً ناضجة، مثل أن يوجد يابانيون أو صينيون، أو أمريكان، أو حتى بائعات شاي فيهن جمال فطري. وجلسة هذا العجوز الذي كان أكبر مني سناً بكل تأكيد، كلها كآبة. قلت، أقصر الطرق، أن أنهض من جلستي وأشير له إلى الباب، وأيضاً إلى ساعتي، كناية عن عدم وجود وقت لبقائه أكثر. لكني لم أفعل ذلك، ولسبب مجهول داخلي، قررت أن أتسلى بالرجل العجوز، وفي الوقت نفسه أعينه تسلية للناس في الشوارع، كانت شهرته الدولية مجرد شهرة فقط، ذلك النوع من الشهرات التي لا يكسب منها المشهور شيئاً، ويكتوي

غالباً بنيران لم يكن ليكتوي بها لو لم يكن مشهوراً، لقد درس التقليد في إحدى الجامعات، في موسم ما، وكان ذلك منذ زمن بعيد، والآن لا شيء يجبر جامعة أخرى على الاستعانة به، ولا بد يوجد شباب كثيرون تتفانى حناجرهم في الزئير والنهيق.. لا مجال لاعتبار العواء والنهيق والزئير نشاطاً ثقافياً بأي حال من الأحوال، ولكن يمكن اعتبار الناعق، الناهق، الذي يزأر، عضواً في نادي النخبة، الذي أتولى رئاسته، بالرغم من أنني لم أتفرغ له قط، وبالتالي سينال شيئاً من الدعم.

انشرح المقلد عادل حين وضحت له الأمر، نهض عن مقعده، جلس على ركبتيه، وزقزق حتى لتحسه عصفورَ كناري حقيقياً، وجد طريقاً إلى مكتبي، وليأتي سليمان مندفعاً من الخارج، ليستطلع، ولا بد أنه نسي أن ضيفي هو المقلد عادل ويمكن في وجوده أن تتكون غابة كاملة من الأصوات.

موضوع غينيا بيساو إذن، لم يكن مهمة ثقافية، ولكنه مهمة نخبة، أي أن نادي النخبة هو الذي دعمها، ويسافر فيها أفراد من النخبة، ووجود سليمان داخل ذلك الوفد، لم يكن معجزة، فسليمان أيضاً عضو في النخبة، ويمكنه السفر تحت ذلك المسمى.

كان سليمان قد أخبرني منذ ثلاثة أشهر بقصة لم أستطع أن أرتبك بها، أو أقترح لها طعماً ما، ولا كانت حقيقة، تهمني في شيء، واستغربت لماذا حكاها لي أصلاً؟ كان ذلك في أحد الصباحات، وكنا دفنَّا شابور طه الهندي قبل يومين، ولم يستطع

موظفو الوزارة أن يُخفوا حزنهم وأسفهم العميق على رجل عشق البوابة، ولم يرد مفارقتها حتى وهو في الخامسة والسبعين، ومصابٌ بأمراض شتى، ربما يكون الجذام الواطئ من بينها. كانت أمه كما يدعي، وأقسم أن أمه التي تركها في الهند، وفي مقاطعة مومباي بالتحديد، منذ أكثر من نصف قرن، وهاجر، كان اسمها بوابة، وبغض النظر عن أن تلك كانت امرأة، وهذه مجرد خشب وحديد، وشيء من النقشات والصبغة، فإن كلتا البوابتين لها حليبها الخاص، والحارس شابور رضع حليباً هنا وحليباً هناك، وقد ترك حليبه الأول، ولا مجال لترك الآخر.

لم يكن في الحقيقة يرفض فكرة التقاعد في سن معينة، ولم يعتبر، أبداً، أن عدم تنفيذ قراري بإحالته للتقاعد تمرد أو إساءة، إنها فلسفة حياتية، أن تعيش في بوابة، وبجانب بوابة، وداخل بوابة، ولا تريد سوى أن تترك كذلك. وقبل يومين من وفاته ترك البوابة فجأة للحارس الأصلي، المحروم من الانفراد بها، وصعد إلى مكتبي، لكن بكار المتخشب أمامه، رفض السماح له بالدخول كما عرفت بعد ذلك، لجأ لسليمان الذي كان داخل مكتبه، فأدخله.

كنت في تلك اللحظة أحدث طبيبي ستالين عبد الباقي، أطلعه على أخباري، وأسأله إن كان لنزع البروستات دخل في استعادة شيء من نخوة الرجال المفقودة؟ ذلك أنني أحسُّ برغبة جيدة في الالتحام بامرأة، وقد أعيد ليز إلى امرأة مرة أخرى بالرغم

من أنها يبست عاطفياً، ولم يبقَ لها سوى انهيارات الزوجة وألمها، وتلك الأمومة المزعجة لأيهم جمعة.

كان الطبيب يضحك، والأطباء يضحكون أحياناً، وغالباً حين يودون أن يضحك مريض ميئوس من شفائه، يتوهم ضحكاتهم، طمأنينة.

لم أكن أمزح، وضحكة الطبيب هنا ليست مزاحاً أيضاً.. قال بكل حزم، بعد أن انتهت ضحكته التي تركها حتى النهاية، ولم يبترها:

– نعم معاليك.. نزعنا منك بعض الشر، وجاءك الخير كله، تهانيّ، وتحياتي للشريكة المحترمة.

وضعت سماعة الهاتف منشرحاً، وأشاهد شابور طه الهندي، البواب الذي أقسم أن يظل بواباً إلى الأبد، واقفاً لا يتأملني، ولا يتأمل الحياة الرغدة التي يحرسها طواعية، ولا يعرف معناها، أو لا يتبادر معناها إلى ذهنه، أو لا يريد أن يعرف معناها في الأصل. كان في الواقع، يتأمل ذبابة ثقيلة الدم، تتحاوم من حولي منذ الصباح المبكر.

– نعم يا شابور.

قلت أشجعه على الكلام.

– لا شيء معالي الوزير.

ردَّ بصوت واضح، ثم استدار وخرج.

كانت ثيابه غاية في النظافة والجمال: السروال الأسود مغسول ومكويّ بعناية، القميص الأزرق مرتبٌ أيضاً، الطربوش الأبيض الذي يشبه طرابيش الطباخين في أوروبا، ويصر على ارتدائه في عصر توقف فيه ارتداء تلك الزيادات، يبدو أبيض فعلاً، وبلا أي ذرة من وسخ. كان باختصار، رجلاً عجوزاً يحتفي بالحياة بصورة أو بأخرى.

غسلناه في المستشفى، ودفناه في واحدة من المقابر المعروفة، وحزنَّا جداً، وفوجئنا ونحن نمده إلى القبر بأن عشرات الأيادي امتدت، ووارته. كانوا أصدقاءه بلا شك، وربما أبناءه أيضاً، فقد كان يذهب أحياناً إلى حي بعيد، قال إن له فيه زوجةً، وعيالاً يكبرون بسرعة، ولا يستطيع ملاحقة نموهم.

سليمان أخبرني بقصة كما قلت، ولم أتفاعل معها بأي نوع من التفاعلات، قال بأنه حضر حفل زواج الفتاة ميمونة، على صديقه رجل الأمن الذي اتصل يسأل عن صلتها بي، بعد أن ضبطت في مظاهرة ضد السلطة، منذ عام تقريباً.

- ميمونة تزوجت إذن؟

قلت في برود، وأتمنى أن يغير مجرى الحديث، ولم يغيره.

- نعم معاليك، كان حفلاً أسطورياً، حضره حتى اللواء حيدر ضريس، مدير الاستخبارات، فعلاً فتاة جميلة، فعلاً رائعة.

كان ذلك في ما مضى، قلت في سري، لتكن جميلة ورائعة للذي حظي بجمالها وروعتها، أنا أنعشت ليز المسكينة، نعم

أنعشتها ليلة أمس، وكادت أن تموت من الدهشة، لكنها لم تمت، بل تطالب بمزيد من الحياة، لتندهش أكثر وتقترب من الموت ولا تموت.

– ممتاز، لقد جرَّها رجل الأمن من تلك البؤر التالفة إذن، هؤلاء المراهقون، يُسمّون أنفسهم معارضين ولا يستطيعون كتابة منشور بسيط، من دون أن ترتعش أيديهم، أو تبتل سراويلهم.

– صحيح معاليك.. يدنا.. أعني يد الحكومة، طيبة وتسعى في عمل الخير، لكنها باطشة أيضاً حين يتطلب الأمر. لقد باركت لها ولزوجها ونقلت لهما مباركة معاليك.

– شكراً، أنت دائماً تفعل الصواب.

– تعلمت من معاليك.

ردَّ سليمان بتلك الجملة، التي تطلق عند المجاملات، ولم أكن أحبها أيضاً، وتمنيتُ لو اندثرت فجأة.

هذه الأيام، أعني منذ أن بدأ شهر ديسمبر، أطلقنا في وزارة الثقافة، وبتحريض عنيف من مثقفين من البوليتاريا لم يكونوا يعارضون السلطة، أو يحبونها، أو لهم رأي مباشر أو غير مباشر في كل شيء، مبادرة اسمها: الشتاء أبي، وتتلخص في إقامة نشاطات غنائية ومسرحية، يشارك فيها مغنون وطنيون، ومسرحيون جادون، وبعض الشعراء، ويحول عائدها لشراء أغطية وملابس شتوية للفقراء، في الأحياء كلها. كانت عمل خير بلا شك، وعمل خير أكبر من طاقة التطوع، وبحاجة لطاقة

حكومات غنية، تتكفل بشيء منه، لكن حكومتنا التي يرأسها علي الهباش، وأشارك فيها، لا تتحمل نفقات غرس شجرة، أو دفن حفرة في طريق. نحن نفعيون وانتهازيون، وكل تلك الصفات التي تنطلق ضدنا في الشوارع. وكلما دخلتُ بيتي وتأملت ترفه، ولمعان حوائطه وأرضياته، وتوفر خامات الشبع فيه، تذكرتُ أن الظلام من حولي دامس، ودامس جداً، لكني غير مستعد لإيقاد النور.

إذن: الشتاء أبي، والمبادرة انطلقت، وتحدثت في أول حفل غنائي، كان على مسرح الشعب، وفيه صفوة من أهل الغناء البعيدين عن عمل الخير، ولم يأتوا إلا تحت ضغط مكثف منا، وأيضاً أملاً في الحصول على شيء من الدخل، وفي اليوم الثالث، والأخير من المبادرة، وكنتُ داخل عرض مسرحي، يقدمه حكيم، أو حكيموف، الفنان الاستعراضي العائد حديثاً من روسيا، وبمصاحبة موهوبين آخرين، اقترب مني بكار، وكان يجلس متخشباً على بعد صفوف عدة، من الصف الذي فيه مقعدي، لكنّ عينيه كانتا تدوران وتمتصان.

كان يحرسني بنزاهة.

همس بكار في أذني، وحكيموف يعلن بصوت مرح وجسارة فنية، وحركات منغمة، أن الفتي الأصلع: بحر المالح، سيتدفق الآن ويغرق أجمل امرأة موجودة في القاعة، ولتضج القاعة بالمرح والتصفيق:

- يريدون معاليك في بيت الرئيس، طلب عاجل.

- بيت الرئيس؟

- نعم.

- أنت متأكد؟

- نعم.. يوجد سائق ومرافق من الرئاسة في انتظارك.

نهضتُ مرتعباً، وقد دارت رأسي بمئة سؤال بلا جواب. فليس من المعتاد أن أدعى بواسطة الرئيس في مثل هذا الوقت، إلا لو كان أمراً روتينياً، أعرفه مسبقاً، ودائماً بعيداً عن بيته الذي لم أزره قط. وإن كان ثمة أمر طارئ، فلا يُدعى إليه إلا من يستطيعون معالجة الطوارئ، والثقافة ليست طارئة، ورعاتها لا يصلحون أدوية في ساعة الطوارئ.

كان استدعاءً مقلقاً بالفعل، ولا شك وراءَه سبب مقنع.

كانت آخر مرة تغيرت فيها الوزارة، منذ عامين تقريباً، ومن المحتمل جداً، أن ثمة تغييراً جديداً قادماً، ويستدعيني الرئيس ليخبرني بأنني سأخرج هذه المرة، وربما يود الاعتذار عن ذلك.

ارتحت لتوصلي لتلك الفكرة، المؤلمة، وفي الوقت نفسه، انزعجت جداً.

ماذا سأفعل إن خرجت؟

ماذا ستفعل ليز، حرم معالي الوزير؟

-٢١-

كان الفريق علي الهباش، في الآونة الأخيرة، قد بدأ يحكم البلاد بطريقة أشد غرائبية من غرائبيته المعهودة، التي نعرفها، ونهضمها ونتفاعل معها في أحيان كثيرة، منذ سبع سنوات تقريباً.

ابتدأ يحب مكبرات الصوت بشكل هستيري، يستخدمها بإسراف، حتى في طوافه الأحياني على الإدارات المختلفة، واجتماعات مجلس الوزراء التي كانت تجري في مكتبه، وعلى طاولة واحدة، ولا يتطلب الحديث فيها سوى رفع الصوت إلى درجة أعلى قليلاً من الهمس. كان يمر أحياناً في السوق، يبحث عن أماكن بيعها، ولم تكن متوفرة كثيراً، باعتبارها ليست سلعة رائجة، ولها زبائن، ويتذمر. وقد يغشى حفل عرس في أحد الأحياء، فجأة، ينتزع مكبر الصوت من يد المغني المرتعش، الغارق في الغناء بصعلكة، ويستخدمه في طرح نصيحة ما أو قول مأثور، وينصرف، وقد عرف الناس حكمته الشهيرة المتداولة: "طاؤوس الغربان، غراب وأكثر"، لأول مرة، من مكبر صوت في عرس من الأعراس الشعبية.

غرائبيته احتفت بأشياء ما كانت تحتفي بها الغرائبية القديمة، المعتادة، في الماضي، وكان أن قرر بيع حي: لقمة العيش الذي ولد فيه، ونشأ، وما زال بعض أقاربه اللصيقين يسكنونه، لمستثمرين من الداخل والخارج، سيبنونه عمارات شاهقة، وسوقاً تجارية فيها كل شيء، ودار سينما، بعد ترحيل سكانه لمكان بعيد. أمر

بنقل وتغيير موسم زراعة البطيخ من الصيف، إلى الشتاء، وأثنى على منتوجه السيئ بخطاب رسمي، وعين صحفياً مصرياً اسمه: فكري خفرع، ويدعي أن روح فرعون رياضي تتلبسه، وتساهم في تحسين قدراته، مستشاراً رئاسياً لشؤون: الشاطئ والكواكب، فريقي كرة القدم الرئيسيين في البلاد، في سابقة خطيرة قد تفتح ثغرات محكمة في نظام تعيين المستشارين، بحيث تصبح واحدة مثل سوسو الطرب، الراقصة الخليعة، في أعراس الطبقة الراقية، مستشاراً رئاسياً ذات يوم. كانت قصة الجندي المتقاعد منير وحمة، الذي سمح له باستيراد العوانس من الدول المجاورة، وتزويجهن فوراً للمواطنين، بأسعار في متناول اليد، قد أوغرت صدور النساء في بلد ثلث نسائه عوانس، ويحلمن بالزواج، وكان أن وافق الرئيس، وبعد ضغوط ونصائح، واستفزازات بلا حصر، وتهديدات من العوانس بتعرية الصدور في الشوارع، على تصفية مؤسسة وحمة للتزويج، وسجن مالكها منير وحمة، وتجريده من وسام الخيرين، الذي كان وساماً مثيراً للجدل في تلك الأيام، بسبب أنه يمكن أن يمنح لأشد الناس ورعاً وتقوى، وفي الوقت نفسه، يمنح لعاهرة. ولطالما كانت سعاد ضوينا التي تدير سلسلة من بيوت المنكر، داخل العاصمة والأقاليم، تفخر بذلك الوسام، تعلقه على صدرها دائماً وتردد: حصلنا عليه، أنا والشيخ عمر، ومعروف أن الشيخ عمر كان إماماً وعالماً دينياً فذاً.

كانت سيارة الرئاسة، التي صَحِبَني إليها رجل في حوالي

الأربعين، طويل داكن البشرة، وضيق العينين، وفمه مائل إلى اليسار قليلاً، بسبب شلل في العصب السابع، كما أتخيل، من ماركة مرسيدس بنز الألمانية، كبيرة ومريحة، وأكثر انسيابية من الهنتر الإنجليزية التي تتبع لوزارتي، وأستخدمها. كانت سوداء، وفيها مروحة دوارة، مثبتة في السقف، وراديو مزروع في مقعد السائق من الخلف، وقطعاً وُضِع هنا لإتاحة الفرصة للذي يجلس في الخلف، وغالباً الرئيس نفسه، أو أحد ضيوفه، لمتابعة الأخبار من هنا. كانت تلك تقنية حديثة، ومعظم العربات التي تسير في الطريق كانت مجرد عربات تسير بلا رفاهية كثيرة. جلست في الخلف، وجلس مرافقي بجانب السائق، الذي كان مجعد العنق، ومتيبساً مثل بكار تماماً، ووجدت نفسي أتساءل: هل يصنعون نسخاً منهم، ويوزعونها؟

طوال الطريق، لم تهدأ خواطري، ليس ذلك فقط، بل تزداد هياجاً كلما أحسست أن في الأمر احتمالات شتى، بما في ذلك أن تطير عنقي، لسبب لا أعرفه، وهذا أمر ليس نادراً أو منعدماً، في العالم الثالث، أن تطير عنق وزير، لأن هناك مَنْ هو أعلى سلطة، وقرر أن تطير عنقه. لقد دُعينا أثناء وجودنا في فرانكفورت، العام الماضي، لحضور عرض خاص لفيلم روائي اسمه: النحس، مقتبس من حياة زعيم أفريقي، حكم بلاده لأزيد من ثلاثين عاماً، وخرج من الحكم بعد ثورة أكد قادتها للعالم، أن البلاد فرغت من كل شيء، ولم تبقَ نقطة عسل أو حليب

واحدة، ليقوم بلحسها أحد. كان الفيلم مليئاً بالخيال بالطبع، لكن حتى الخيال لا يمكن إيقاده بطريقة مؤلمة هكذا، إن لم تكن ثمة حقيقة تطل برأسها، أو تمد لسانها.. كانت هناك نساء مصلوبات دائماً على سرير الزعيم، ينتظرن العطف الجنسي، بل يتوسلنه، أزواج لأولئك النساء يقبلون يد الزعيم، ويدعونه لمباركة نسلهم، بغرس نطفة من البركة في أرحام نسائهم، ووزير لعله وزير المالية أو الخارجية، ابتسم رغماً عنه، حين دخلت حشرة طنانة، أذن الزعيم، وأتلفت جلسته، فأخرج الزعيم سلاحه، وقضى عليه.

لم يكن ثمة شعب واضح الغضب، قد ينفجر فجأة ويدمر، وحدث ذلك فقط، حين جاء إلى البلاد رجل غربي، معالج طبيعي، استورده الزعيم لتدليكه، وكان يدلكه، ويقرأ نقاط ضعفه، وقاد أول مظاهرة ضده، ظلت مشتعلة وانضم إليها المقهورون، حتى سقط. طبعاً كانت الحبكة غربية، والطراز المستخدم في الحكي، غربي، وحتى المخلص الذي قضى على الكابوس، غربي، لكن الوقائع أفريقية بلا جدال.

تحسست عنقي، وعرقت، أخرجت منديلي الأبيض المطرز بخيوط ذهبية لماعة، مسحت به عرقي، ولم يتوقف، مسحته مرات، وأجده يزداد. تذكرت أن ليز استعادت كثيراً من جاذبيتها القديمة، وباتت امرأة من جديد، وأنا استعدت بعضاً من مروءتي المهدرة، وعدت شبه الرجل الذي كنته سابقاً، والبيت الذي نسكنه اختلف الآن، وأصبح أكثر راحة، بحيث لم تعد مرجان

الخادمة تبكي من أثر التوبيخ إلا نادراً، لأنها لم تعد توبخ إلا نادراً، وغرفة النوم التي كانت شبيهة باسمها، غرفة نوم فقط، الآن غرفة شقاوة ومرح، وتلاحم ليس شرساً كالسابق بالطبع، لكنه تلاحم على أي حال من الأحوال.

وصلنا منطقة سكنى الرئيس، وسط مبانٍ عسكرية الطراز، تركد بجانبها عربات مدرعة، ودبابات، والمرافق الذي يجلس بجانب السائق، دخن ثلاث سيجارات أثناء الطريق، والآن أخرج قارورة عطر صغير، ملساء من جيبه، ورشّه في صدره وقميصه وتحت إبطيه، وأيضاً على سقف السيارة وأرضيتها. كان عطر: طير الجنة، المصنع محلياً بخامات محلية من زهور البنفسج، وأيادٍ محلية، وكان من العطور السيئة التي لا أستطيع احتمالها، وأحتملها الآن لأن لا خيار عندي، وقد قلت لرجل الأعمال الذي يملك مصنع ذلك العطر، ذات يوم، وكنت أعرفه، أن عليه أن يغتسل ويتطهر ويستغفر كثيراً، لأنه يبيع المرض للناس بوصفه إنعاشاً.

كانت البوابة الأولى خطرة للغاية، فيها أسلحة مصوبة، وأصوات تصرخ، واجتزناها بعد أن نزلت إلى الأرض، وفتشني أحد الجنود المرابطين تفتيشاً، لم يترك حتى سروالي الداخلي، وياقة قميصي، ويعرف أنني وزير الثقافة، ولم آت متطفلاً ولكن بناء على استدعاء الرئيس. البوابة الثانية، كانت أقل دمامة من الأولى، واجتزناها بلا تفتيش وبمجرد أن ألقى الجندي نظرة داخل السيارة، من الزجاج المفتوح، وأبصرني، وابتسم، وبدا لي وجهه

مألوفاً، برغم الضوء الخافت، كأنه من معارفي، ولا أعرف لماذا خُيّل لي أنه أحد عمال ورشة راضي للحدادة السابقين، وقد مر على تلك الورشة عدد من العمال، بعضهم استمر حتى الآن، وبعضهم غادر لطرق سبل حياة أخرى، وليس من المستبعد أن يكون منهم من انضم لطاقم حراسة المسؤولين، ووصل إلى بوابة بيت الرئيس.

توقفت العربة في حديقة واسعة، كانت خضراء بالكامل، وفيها علامات حياة أكثر مما في جسدي شخصياً، زهورها كلها متفتحة، أصوات عصافير حقيقية تغني، أشجار نخيل تبدو اعتادت على طرح الثمار في موسمها، والآن ليست جرداء تماماً وإنما في فترة خمول مؤقت. كانت ثمة مقاعد من البلاستيك، موزعة بتناغم في ممرات الحديقة وداخل نجيلها الكثيف، والأنوار الساطعة كاشفة لكل شيء، بما في ذلك وجه بستاني عجوز بارك على ركبتيه، يسقي.

كانت رؤيتي لمقاعد البلاستيك، صادمة قليلاً، وكنت أتوقع أن أرى مقاعد من الحديد، منتشرة في كل شبر، وقد امتلك منها الفريق مئاتٍ أيام كان يأتي إلى ورشة راضي للحدادة.

فجأة ارتعبت وأنا أخطو للأمام، ومرافقي يقودني وهو يهمس: من هنا معاليك.. من هنا، ذلك أنني شاهدت أقفاصاً ضخمة في ركن من أركان الحديقة، وداخلها أسود ونمور، وثمة زرافة تمد عنقها، تتناول غصناً رطباً من قمة إحدى أشجار السدر.

- يا إلهي.. حديقة حيوان؟

كنت نطقتُ الجملة، وظننتني همستُ بها لأن المرافق رد:

- نعم معالي الوزير، حديقة حيوان مصغرة، بها أسد ولبوة، ونمران، وزرافة، وهناك فيلان في الجانب الآخر. من هنا معاليك.. من هنا.

كان الصالون الذي دخلنا فيه، مؤسساً بأسطورية، وفيه ذوق مختلف تماماً عن ذوق ليز الذي أسست به بيتنا. هنا توجد لمسات عصرية، وفي نفس الوقت توجد لمسات تراثية، كل الألوان موجودة على قطع الأثاث، وكل الزوايا والتكعيبات، وتحويل أعواد قصب السكر إلى تحف، موجود أيضاً.

هنا وهنا بالضبط، أدركت أن الترف أيضاً درجات، ودرجات متواطئة وخسيسة لأبعد حد، لقد كان بيتي الذي أعتز بظلاميته، وظلمه لبيوت الفقراء، وأعتبره ظلامياً من الطبقة الأولى، مجرد بيت عادي، هو بيت متسول، إذا ما قيس ببيت فيه أي شيء ممتع وقابل ليصبح ممتعاً وشديد المتعة، باستثناء الزوجة، أو المرأة عموماً، فلم يكن الفريق الهباش، على حد علمي متزوجاً، أو يصادق امرأة، منذ تخفف من سيرة المرأة، واحتفى بالمجد العسكري.

لم أستطع الجلوس، وقد تركني مرافقي وذهب، ولم أستطع الوقوف أيضاً وبدأت أتمشى في المكان، أمتلئ بالترف، أفرغ

ما امتلأت به وأعبئ من جديد، وشعرت بسرور مفاجئ وسط التوتر، حين شاهدت صورتي بجانب الرئيس، تحتل مكاناً جيداً على أحد الرفوف، ويمكن أن يشاهدها الضيوف بسهولة. وحين جاء الرئيس بعد أن بلغ توتري القمة، وجدني أجلس على طرف أحد المقاعد، تهتز قدماي، وثمة رجفة على شفتي السفلى.

- لا بأس يا حداد..أهلاً بك.

-أهلاً سيادة الرئيس.

مددت يدي ومد يده، كانت اليد القوية المدمنة على عادة صهر أيدي الآخرين، نفسها، لم تصهر يدي في المستشفى تلك الأيام بسبب مرضي، والآن أحس بوجع وأن ثمة وتراً داخل اليد قد تمزق، أو عظماً تكسر.

- اجلس.

وجلست.

كان ثمة خدم ظهروا من بعض الشقوق ومن خلف اللوحات، وأيضاً من بوابة الحديقة التي دخلنا منها. كانوا يحملون الأطباق وأكواب العصير، وسكيناً كبيرة لا تشبه سكاكين الموائد ولا أعرف سبب إحضارها، وأرتعد في داخلي. وضعوا كل ذلك أمامنا. زأر الأسد الذي في الحديقة بصوت جبار، واضطربت أكثر.

- كما ترى يا وزير، نحن نعتني بكل شيء، حتى الحيوان، نرفق بالحيوان كما نرفق بالإنسان، ألا يقول الناس ذلك عنا؟

كان يرتدي ملابس رياضية بيضاء، مخططة بالأحمر، ويضع على رأسه قبعة من القماش البني، بينما يضع قدميه في حذاء رياضي من ماركة أديداس. كان يبدو رئيسَ جمهورية حقيقياً، وفي رأيي الشخصي، لو وضع بهيئته هذه داخل لغز، فيه كثير من الذين يلبسون الزي نفسه وقيل للمتسابقين، من هو رئيس الجمهورية وسط هؤلاء؟ لاختاروه مباشرة. هناك وظائف تشبه أصحابها، وهناك أشخاص يشبهون وظائف بعينها، حتى لو لم يُجيدوا مَلأها، والفريق علي فتح الله، تشبهه رئاسة الجمهورية بشكل يدعو للعجب، ولا أدري ماذا سيفعل، لو أطيح به في انقلاب شبيه بانقلابه، يسمى ثورة أيضاً؟

- نعم سيادة الرئيس، مؤكد سيادتكم يحظى بالتأييد الشعبي الكامل.

إنها لكنة الظلام، الظلام الذي يتحدث نيابة عن الضوء، ولست غاضباً أن يستخدم لساني، أو أستخدم لسانه، كل ما يهمني الآن، أن أخرج من هذا البيت كما دخلته، جمعة راضي وزير الثقافة الحالي.

- طبعاً، الشعب يعرف مصلحته، ولا يتابع الخونة.

فجأة أحضر أحد الخدم مكبراً للصوت، يعمل بالبطاريات،

فتحه وانحنى يحمله أمام فم الرئيس، الذي عاد يتحدث:

– الخونة، المارقون، الذين يأكلون من خيرات البلاد، ويسبون رموزها، نحن لم نطلب لأنفسنا أكثر مما طلبناه للشعب، لم نأخذ شيئاً من أحد، ولا فارقت العفة نهجنا. هي ثورة تصحيح قمنا بها انطلاقاً من واجبنا وأخلاقنا. طاؤوس الغربان هو غراب وأكثر.

ابتعد الخادم حاملاً مكبر الصوت، ولم يمسح الرئيس عرقه الانفعالي، تركه ليجف وحده، بفعل مروحة السقف النشطة، ثم استرخى في مقعده..

كنت أتعجل معرفة سبب استدعائي، وأتمنى أن أطلق تلك التنهيدة العميقة، التي تتناسل في صدري، وقد تكون تنهيدة ارتياح أو ألم، لا أستطيع التكهن حتى الآن.

– طيب يا جمعة.. لقد غيرنا الوزارة مرتين من قبل، ولم نقم بتغييرك، هل تعرف السبب؟

رددت بسرعة وتلقائية:

– طبعاً سيادة الرئيس، لأننا أصدقاء منذ سنوات طويلة.

– أصدقاء؟

بدا غير مصدق، أكثر من ذلك، بدا غاضباً، أكثر من ذلك، بدا كأنه سيقتلني، ويده اليسرى الفعالة، امتدت إلى السكين بغتة وتراجعت.

وقفت مذعوراً، ويدي على قلبي، وأتمتم لأعتذر، لكنه هدأ..

– اجلس.. لا توجد صداقة بين رئيس ومرؤوس، إن حدثت هذه الصداقة، فقد ذابت الهيبة، أنت صديق لامرأتك، لجارك، لصاحب الكشك الذي تشتري منه الكتب والجرائد، للكلب الذي لا يعوي حين يلمحك، لكن ليس لبواب وزارتك، ولا حتى مدير مكتبك. هذه هي القاعدة.

– نعم.. نعم سيادتك، فهمت.

– أنا لم أغيرك لسبب بسيط، هو أنني أنسى في كل مرة أغير فيها الوزراء، أن هناك وزارة ثقافة، على رأسها وزير، ولا أتذكر إلا بعد أن يصدر القرار.

لم يضحك، ولا أنا ضحكت، ليس لأنني أخاف الضحك أمامه، وإنما لأنني أحسست بطعنة وجهت لي وللعمل الدؤوب الذي أنجزته وما زلت أنجزه، مع طاقم الوزارة سنوات.

أن نكون وزارة منسية لدرجة أن لا ترد إلى ذهنه حين ترد الوزارات كلها، لا فائدة إذن، ولا فائدة من البقاء في السلطة ما دامت بلا ضرورة.

كانت ورشة راضي للحدادة وإطارات الصور، ما تزال موجودة في موقعها القديم نفسه، وبالطبع توسعت أعمالها كثيراً، كنت تركت الإشراف عليها لعامل أثق فيه جداً، وقد حان كما أعتقد، وقت رجوعي، لأجلس على كرسي أمام الورشة، يُحييني

الغادي والرائح: مرحباً معالي الوزير.. لأن اللقب يظل كما هو لا يتغير، فقط ينزاح الكرسي اللامع ذلك، ويوضع مكانه كرسي مغمور.

هل أقدم استقالتي إذن؟

هل أفاجئه بأنني لا أريد البقاء، وقبل أن يفاجئني هو بعدم رغبته في بقائي؟

سأفعل..

اشتعلت داخلياً بجنون، وبدأت تفاعلاتي الداخلية تطفو على سطح وجهي في هيئة احمرار شنيع، وتدفُّقٍ مُزرٍ لهرمونات العداء، وأحسست بالجوع والعطش، والرئيس تجاهل تغيرات وجهي كما يبدو، استمر:

– لم تسألني أبداً ماذا كنت أفعل بمقاعد الحديد التي أشتريها من ورشتك؟

يا إلهي، فعلاً، ترددت كثيراً في سؤاله، وها هو يغير موضوع الوزارة ويتقهقر بي إلى الورشة، سأستقيل ولن أتركه يقيلني:

– في الحقيقة لا أعرف، كنت سأسأل سيادتكم وتحرجت.

– كنت أشتريها لأبيعها لثوار جيش الرسول الذين كانوا يحاربون الحكم الغاشم في جامبيا.. كانوا يعيدون صهرها ويحولونها لأسلحة بيضاء.

هل هذا معقول؟ لم أصدقه، أقسم أنني لم أصدق حرفاً واحداً من حديثه، وثمة إيضاحات كثيرة أحتاجها، وأولها، هل كان هناك متمردون تحت مسمى جيش الرسول، يحاربون الحكم في جامبيا ذلك الوقت؟ وكيف تصل إليهم المقاعد، وهل انعدم الحديد في الدنيا كلها ليشتروا حديد راضي؟ ثم الذي يساهم في محاربة حكم عسكري، لماذا يأتي بحكم عسكري أيضاً؟

كان الظلام دامساً بالفعل، وتذكرت أو أعدت إلى الذاكرة عامداً، صور عشرات الأشخاص الذين طردتهم من وزارتي لأسباب لم أكن أعرفها، وأشخاص توسطت ليوظفوا في أماكن لا يملكون مؤهلات وظائفها.. النار.. النار بداخلي وسأخرج.

أخيراً، لملمت كل ما أستطيع لملمته من شجاعة، وتحدثت بصوت أظنه كان عميقاً ومؤثراً:

- سيدي الرئيس، لو تسمح لي، أريد أن أتقدم باستقالتي.

- قبلت استقالتك.

قال الرئيس مباشرة، وبلا تأنٍّ أو تأمُّل لكلماتي، أو البحث عن أسباب وراءَها، وبصوت مزعج، أعلى من صوته، كما لو كان استخدم مكبراً.

نهض واقفاً بشراسة، تنفتح شفتاه وتنغلقان، وتمتد يده إلى السكين التي ما زالت في مكانها على الطاولة، وتتراجع، وجاء مرافقي الذي أحضرني، كأنه خرج من جيب الرئيس أو غطاء

رأسه، أشار لي إلى الباب، وهو يقول: من هنا، من هنا لو سمحت، وانتبهت إلى أنه لم يقل معاليك..

كان الأسد يزأر، أو لعلها اللبوة، والزرافة ما زالت تتسكع برقبتها بين أغصان شجرة السدر.

كان الليل مختلفاً جداً، بطعم لم أتذوَّق مثله منذ زمن، وفي عربتي التي ركبتها، بعد أن أنزلني السائق الرئاسي، كنت أتأمل عنق بكار المجعد، وأحس بشوق مبكر لهذا العنق الذي سأفتقده دائماً.

-٢٢-

أخبرت ليز بكل شيء.

وهذه من الحوادث التي يفترض بنا أن نحملها إلى البيت كلها، وبلا أي حذف أو تعديل لفقرة من الفقرات.

قلت لها ما لم أستطع قوله لنفسي، في لحظة الهزيمة الكبرى: لا شيء يعادل حرية اللبس، وحرية التجول، وحرية أن تسكن حي حفرة أو حي فخذ الثور العشوائي، من دون أن يعلق أحد على شكل بيتك أو نوع أثاثه.. لا شيء يعادل تسوق الفرد، من دون أن يهتف أحد ضده، أو يتهم بسرقة مال من أحد.

كانت ليز في البداية واجمة، وأنفقت ربع الليل، تجلس على الأرض ويداها على رأسها، إنه صداع الشقيقة، وقد اعتاد مهاجمتها في أوقات أفراحها الكبيرة، وأوقات أحزانها أيضاً، ومنذ زمن لم يهاجمها، ذلك ببساطة شديدة، أنها لم تفرح جداً بأي شيء، وفي المقابل لم تحزن جداً لأي شيء.

كان معالي الوزير زوجها، يمضي في عمله المعتاد بلا زيادة في الشر، ولا نقصان في الخير، بمعنى أنه يعمل وكفى، وابنها أيهم، يدرس بجدية حيناً وبتكاسل حيناً آخر، تماماً مثل كل الطلاب في سنه ومرحلته. لا جديد تلك الأيام سوى أن الوضع الحميم لعلاقتي بليز، كان من العناوين شبه الرئيسة لأمسياتنا، وهذا كان يبهج لكن ببهجة عادية، لا تصل حد إشعال صداع الشقيقة.

بعد أن انتهى ربع الليل الواجم، تحدثت ليز، كان صوتها مجروحاً، ولا أذكر متى سمعت صوت الجرح هذا عندها، وأعتقد يوم ماتت أمها ومات أبوها، وزوج أختها موناليزا الكبرى. انتبهت لأول مرة وأنا أصغي إلى حديثها أن الشعيرات البيضاء في مقدمة شعرها، اختفت تماماً تحت أسود لامع لا بد صبغت به الرأس كله. انتبهت إلى أنها تعلق زينة عصرية، على صدرها، عبارة عن سلسل ذهبي رقيق، ينتهي بفاروصة سوداء على شكل هلالين متعانقين. مؤكد كنتُ هلالاً منهما وكانت هي الهلال الآخر. لقد عادت بشكل أو بآخر، سنوات عدة إلى الوراء، ولو زرع فيها الرحم القديم مجدداً لربما عادت أحلام أن تُنجب مرة أخرى إليها.

كانت تمعن في جرح صوتها وتسأل:

- ومتى سيعلنون الوزارة الجديدة؟

لم تشتم الرئيس ولم تشتم أحداً آخر، ولا أساءت الظن برجل قبل استقالتي، التي لم تكن في الحقيقة استقالة، ولكنها إقالة، جاءت في ثوب استقالة. أقسم بأنه كان سيُقيلني في تلك الجلسة المؤذية، لولا أن بادرت بإقالة نفسي، لا أحد مسؤولاً يقبل استقالة من موظف حتى لو لم يكن كفؤاً من دون أن يسأله: لماذا؟

- لا أدري ربما غداً أو بعد غد.. لم يلمح الرئيس إلى موعد.

– طيب، سنتصرف، لسنا بؤساء يا معالي الوزير، ما زال لدينا بيت في حي ممتاز، ويمكننا أن نسكنه، وما زالت الورشة تعمل بكفاءة عالية، وما زال باستطاعتك أن تمنح أيهم كل الحنان.

صحيح، لا بؤس بخصوص البيت والحياة عموماً، ولكنْ ثمة بؤس كبير بخصوص أيهم، الولد اعتاد أن يبدو منتفخاً، وممعناً في الانتفاخ، وقد لا ترضيه حالة المواطنة البعيدة عن الأضواء التي سنكون فيها.

لم أكن أحس تجاهه بأي تفاعل حقيقة، أعتبره مجرد يتيم حسن الحظ، وجد عائلة تمجده، بعكس ليز التي كانت تعتبر العائلة حسنة الحظ بعثورها على الولد، المتخفّف من كل أعباء الأهل، والذي لن يسأل عليه أحد ويختطفه منها. كان قد بلغ التاسعة، وتكوّنت لديه أفكار وطموحات لا بد اكتسبها من إيحاء الفخامة التي يحيا وسطها، وسمعته مرة يخبر إحدى الخادمات بأنه سيُصبح طياراً، عابراً للقارات، ويدعوها لركوب طائرته، والجلوس قريباً منه داخل حجرة القيادة، والخادمة منشرحة.

نامت ليز ما تبقى من تلك الليلة، وبعد أن ذهب صداع الشقيقة بلا دواء، بارتياح أحسسته في تنفسها الهادئ، وسكونها على الفراش بلا تعديل أو اضطراب لوضع النوم، وكنتُ ساهراً بلا أي رغبة ليس في النوم، وإنما في النعاس حتى.

قبلت استقالتك.

هل هكذا تقبل الاستقالات؟ هل هكذا يُعامل من شهد الركض اليومي، في حب: أنفاس، من حي لقمة العيش إلى حي حفرة؟

من كان يصنع مقاعد الحديد، ليشتريها أعضاء جيش الرسول ويحولوها سيخاً، يحاربون به النظام؟

- لا بأس.. لا بأس يا حداد.

يناديني بالحداد في أغلب الوقت وحتى في اجتماعات مجلس الوزراء، التي يرأسها بوصفه رئيس الوزراء أيضاً، ولم يرضَ حتى الآن أن يعين رئيس وزراء، أو نائباً.. يا حداد، ولا أتذمر، وكنت حداداً دائماً، وفي أي وقت، وحتى وأنا وزير، لم تكن تفارقني أفكار الحداد قليلاً، حتى تعود مرة أخرى.

لا بأس..

أغير وضعية الرقاد ولا أنام.

أغيرها مرة أخرى، ولا أنعس.

أنهض من الأرق المزري، أهبط إلى الصالة الرئيسة، أتسلى باستعراض أسماء مَنْ أتوقع أن يُختار من بينهم وزير الثقافة الجديد، يوجد مثقفون جيدون، ومثقفون أغبياء، ونساء على قدر من الثقافة والجمال، ويوجد سليمان صافي.

يا إلهي، هل من المعقول أن أكون أحضرت نادلاً من لوقانو السويسرية، لأجعله يزيحني، ويستأسر بحقيبة الثقافة؟

ممكن.. ممكن جداً، ومن الأشياء التي لا أنساها أبداً أن حداداً أصبح وزيراً للثقافة، وضابطاً كان نحيفاً، في حرس الحدود أصبح رئيساً للجمهورية، وفي مؤتمر لوزراء الثقافة، في نيروبي بكينيا حضرته منذ أربعة أعوام، تعرفت إلى الوزير جورج شومبي، وزير الثقافة في إحدى دول أمريكا اللاتينية، وقال لي بلغته الإسبانية التي ترجمت لي، إنه كان البواب الذي يجلس على باب وزارة الثقافة حين مر الرئيس يوماً، وقال يخاطبه من نافذة السيارة التي يستقلها: اصعد إلى الأعلى، اطرد ذلك الوزير الأبله واجلس مكانه.

وكان هذا ما حدث، والآن وزير منذ خمس سنوات ولا يحس بأن شيئاً ينقصه. سليمان على الأقل متعلم، وعمل مدير مكتب للوزير، ومؤكد يفهم في هذا المجال أكثر من بروفيسور أكاديمي. لن أحقد عليه، وسأبارك له فوراً وبمجرد أن يعلن عن اسمه.

في الصباح لم أذهب للعمل، جاء بكار وأخبرته الخادمة أن الوزير لن يذهب، وقضيتُ النهار مع ليز، وبعض العمال الذين أحضرتهم، نحزم أغراضنا، نجمعها في صناديق الخشب والكرتون، والحقائب الكبيرة والصغيرة، التي تتراكم عندنا. كنا نعمل بهمة وكأننا نعد لنزهة، لا لإخلاء مكان ذي شأن، والذهاب لمكان أقل شأناً. وحين أتى الليل، كان عتاد الرحيل معداً بالكامل، ولم

يبقَ سوى إعلان التعديل الوزاري الجديد، ووضع سليمان صافي وزيراً، لنذهب للبيت القديم، أو ربما نذهب مبكراً حتى، وكانت إحدى الخادمات قد ذهبت بالفعل لبيتنا القديم، لتنظفه، وتجهزه لاستقبال العائدين. أيهم بدا ساخطاً، ومن دون أن يعرف سبب الرحيل الحقيقي، وكنا أخبرناه بأنه إجراء روتيني، يحدث دائماً أن يغير أحد مكان سكنه. كانت غرفته قد أعدت بمزاجه، وبدا له صعباً أن يقوم بإعداد غرفة بديلة، في بيت لا يعرفه.

في اليوم التالي لم أذهب للعمل أيضاً، وجاء بكار وذهب، ويحمل مئة علامة استفهام كما قالت ليز التي التقته، وسألها إن كان معالي الوزير بخير؟

في اليوم الثالث، جاء سليمان صافي، سليمان اللملام، معالي الوزير الجديد للثقافة كما أتوقع بقوة.

كان يرتدي بذلة كاملة، بلون أسود، ورباط عنق أزرق بلا أخطاء، وقد بدت نظارته السوداء التي يضعها على رأسه، جديدة، وأظنها من ماركة بوليس، أو ريبان، وهما ماركتان غاليتان كما أعرف. استقبلته في الصالة العارية الآن من الأثاث، وبها بضعة مقاعد من البلاستيك، ولم يبدُ لي مندهشاً من تلك الفوضى، ولا سأل لماذا؟ وكيف؟ وماذا يحدث؟

أخرج من الحقيبة الجلدية التي تلازمه معظم الوقت، ورقة

مليئة بالتفاصيل، كانت تصوُّره الشخصي لخطة الثقافة للعام القادم، ويحتاج توقيعي، ليرسلها لإدارة المالية.

سألته: هل يسير العمل جيداً في الوزارة؟

- نعم.. جيد جداً.

وأحسست بنبرة طغيان وغطرسة في ردِّه، كأنه يزيحني، كأنه يجلس في مكتبي، ولا أستبعد أبداً أن يكون يجلس في مكتبي بالفعل.

في اليوم الرابع، لم يحدث جديد، أي لم يُعلن التشكيل الوزاري المتوقع بعد، وجاءني بكار في منتصف النهار ليخبرني صراحة وبلا أي تلفيق محتمل، أن الوزارة كلها تعلم الآن أنني لم أعد وزيراً، وينتظرون الإعلان عن خليفتي.

لم أتأثر لذلك القول، لم أتأثر أبداً، وكنت جهزت نفسي، حقنتها بمناعة أن لا تأثر ولا إحساس بفقد. فقط سألته:

- ومن برأيك سصبح خليفة لي؟

- معالي سليمان صافي كما يقولون، وسألته فلم يؤكد لي شيئاً، ولم ينفِ.

لم أرد الخوض معه في دردشة قد يبدو فيها الكثير من إزالة الحواجز، فبالرغم من أن بكار بابو يحرسني ويقود سيارتي الحكومية منذ عينت وزيراً، ونفهم بعضنا جيداً، إلا أن ثمة حاجزاً لا بد أن

يتكون بيني وبينه، ليس حاجز الغنى هنا والفقر هناك، والسلطة هنا والضعف هناك، وإنما حاجز العمل.. حاجز الهيبة كما قال الفريق، وهو يلقي بي إلى الشارع. أردت أن أصرفه وبدا لي متردداً، وفهمت على الفور ومن دون أن أسأله، أن ثمة تعليمات من سليمان، أن يحضر العربة الرسمية.

قلت له: خذ السيارة، لا بأس.

بنهاية اليوم السادس للقائي مع الرئيس، ذلك اللقاء المؤسف، الذي تلاه تغيبي عن الوزارة، وسيطرة سليمان على أدمغة موظفيها كما يبدو، كنتُ قد أخليتُ البيت الوزاري تماماً، انتقلت بكامل أشيائي ومشاعري لبيتي القديم، في حي الأصايل، البيت الذي لم يكن فخماً، ولا كبيراً، لكنه احتمل عودتي وهلل لها، واحتوى كل الأشياء التي حشوته بها، الأشياء المجدية والتافهة، التي كانت فيه قبلاً ونقلتها، والتي لم تكن فيه وكوّنتها سنوات الوزارة السبع.

حييت جيراني، واستقبلتُ ابتساماتهم الصافية، التي وراءها تخمينات غير صافية، وقلت لصاحب البقالة التي تواجه بابي، إنني عدتُ مؤقتاً لأن هناك صيانة في بيت الحكومة، وحين زرتُ الورشة، كنت أزورها كمالك لها، وليس مراقباً بعيداً كما كان يحدث في السنوات الماضية، انغمست وسط الحديد، ولحام الكهرباء الذي أدخل حديثاً، وقمت بصناعة خزانة متوسطة الحجم، وحدي، مستعيناً بخبرتي القديمة، قُبلت استقالتي، أو تمت إقالتي.

لا شيء يهمني الآن، وكما تخلصتُ من ظلام دامس من قبل، عشقتُ فيه صبية عشرينية، رمت لي بطعم فاره وذهبت، يمكنني الآن أن أتخلص من الظلام الأكبر، ظلام أن تصبح وسط الظلام، وواحداً من موقديه.

-٢٣-

كنتُ في قيلولتي العادية، وقد مضت خمسة عشر يوماً على بؤسي الجديد، أو لأقل نمطي الجديد، لأنني لستُ داخل بؤس الآن.

كنتُ واعياً بالبيت وأعبائه، وأذهب لورشة راضي، راكباً سيارتي الخاصة الصغيرة، وعدتُ لإحياء أنوثة ليز، ومنحها ليالِيَ جيدة.

كنتُ داخل حلم غريب، أمشي حافي القدمين، وسط حقل للألغام، ويسبقني أخي صابر، يحمل كرته القماشية، ويصيح: لا أستطيع إلقاءَها لك يا جمعة.. لا أستطيع يا جمعة.

أصرخ: تستطيع يا صابر، ألقِها وسأمسك بها، ألقِها يا صابر.. ألقِها.

في اللحظة التي يلقيها، ينفجر لغم وتتطاير أحشاؤه، أصرخ: صابر.. صابر.. صابر.. وأستيقظ على يد ليز وهي تهزني: انهض يا جمعة، انهض.

أفتح عيني ببطء، وصدى الحلم ما يزال عنيفاً..

أحس بخفقان قوي، وأن العرق يملؤني.. وثمة إحساس بأنني أحتضر.

- ماذا يا ليز؟ صداع الشقيقة؟

– لا .. سيُذيعون تشكيلة الوزارة الجديدة بعد قليل، قم لنسمع.

كان التلفزيون موضوعاً على ركن في الغرفة، حيث لم نجد له مكاناً غير هذا الركن، وكان مفتوحاً، على إعلان زيت الذرة، ماركة الطفلين، الذي يظهر فيه طفلان صغيران يأكلان من طبق به طعام مطهو به، ويكبران في لحظة، وتأتي جملة: لقد فعلها الطفلان، دعي أطفالك يفعلوها.

كان ذلك من أهم الإعلانات، تلك الأيام، وبعده مباشرة نشرة الأخبار، كما كنتُ أسمع من الناس.

كان المذيع جديداً علي، وحقيقة قد يكون قديماً في عمله، لكن أنا مَنْ كنت جديداً على الشاشة، فلم أشاهد تلفزيوناً بانتظام منذ فترة طويلة.

كان متأنقاً وافتتح نشرة الأخبار لذلك المساء، بالخبر الرئيسي، الذي ورد من قصر الرئاسة، وقد قضى بتعيين السيد جمعة راضي الحداد، نائباً لرئيس الجمهورية، إضافة لمنصبه كوزير للثقافة، والوزراء الآتية أسماؤهم.....

قلت لليز وكأني أستخدم صوت جاري أو صوت واحد بعيد في الحي:

– ليز، هل هذا أنا.. جمعة راضي؟

لم ترد.

- ليز.. أين أنت؟

لم أكن أبصرها، لم أكن أبصر أي شيء، كنتُ أبصر الظلام فقط.

كان أغرب ما في الأمر أنني كنتُ مستسلماً، وفظّاً في مواجهتي لفضيحة استقبالي عند بوابة المستشفى، وأنا مبتلٌ بالعرق، ومنكوش الشعر، ومتورم المثانة، وعلى مقعد متحرك، وباستثناء صراخي في وجه: ست النساء، الوقحة، المتعدية على رضاعتي بلا وجه حق، لم يبدر مني ما يؤكد أنني أحمل مشاعر يمكن أن أبكي بها، أو أضحك بها، أو أجمدها بلا أي تفاعل. الشيء الآخر المذهل، هو طيف الفتاة ميمونة، هذا الطيف صعب المراس، ومصرٌ على البقاء في ذاكرتي، أو لعل ذاكرتي هي التي كانت صعبة المِراس، وتصر أن لا تفلته. ربما الاتكاء على هذا الطيف، سيعينني على تحمُل ما سيحدث، تماماً مثلما أعانني الإمساك بيد ليز، في بداية تعرفي على الجمال. لكن ليز الآن ليست ليز ذلك الوقت، هي عندي وليست في داخلي تماماً، وأنا عندها، ولست في داخلها تماماً، واليتيم ضحية- أيهم، محور آخر لديها، أظنه أكثر ثراءً من محوري.

مكتبة نوميديا 66
Telegram@ Numidia_Library

ISBN 978-9948-02-436-1
9 789948 024361

هذا الكتاب بدعم من:
1001 عنوان
مبادرة 1001 عنوان

مداد
Medad